أشياءٌ من عالمٍ قديم

(قصة موريتانية)

السيرة الذاتية

* محمد ولد محمد سالم
* 1969 واد الناقة - موريتانيا
* شهادة الإجازة في اللغة العربية وآدابها من المدرسة العليا للأساتذة في نواكشط - 1991
* مقيم ويعمل في دولة الإمارات العربية المتحدة

محمد ولد محمد سالم

أشياء من عالم قديم

دار يوسف بن تاشفين مكتبة الإمام مالك

أشياءٌ من عالمٍ قديم

(قصة موريتانية)

دار يوسف بن تاشفين

مكتبة الإمام مالك

أشياءٌ
من عالمٍ قديم

بسم الله الرحمن الرحيم

أشياءٌ من عالمٍ قديم

(قصة موريتانية)

محمد ولد محمد سالم

دار يوسف بن تاشفين

مكتبة الإمام مالك

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الناشر

دار يوسف بن تاشفين ومكتبة الإمام مالك (رضى الله عنهما)

مع العلم بأن كل منشورات اتحاد الناشرين الموريتانيين (سابقا)

هى الآن ملك لدار يوسف بن تاشفين ومكتبة الإمام مالك

ولأمينهما العام محمد محمود ولد محمد الأمين

الجمهورية الإسلامية الموريتانية
«كيفة»
تليفون، 002226331035
002226883398
002226732543
002226751255

الإمارات العربية المتحدة
«العين»
تليفون، 0097137657742
00971506735298
00971503343782
فاكس، 0097137655764

تصفية حساب

أيهون عليك أن تخسر كل شيء دفعة واحدة وأن تلقي بقية ذكرى ماثلة أمامك تحمل إليك نفحة الماضي الجميل، الجدار القديم الذي قمت على بنائه ينهار من خلقك وقد يدركك الهدم فإذا أنت صريع بين الركام بعد أن محوت كل أثر وبذلك تذهب ريحك وتقضي على الجميل الذي صنعته، أعرف أنه بهرتك الألوان الزاهية على واجهة المحل وهذه البضاعة الكثيرة الطيبة، طمحت نفسك إلى هذا العالم الجديد الساحر، الأحلام ترتفع أعلامها على الشاطىء البعيد وها أنت تبحر وحدك في مهب الريح والشمس تميل للغروب، عصية أمواج هذا البحر فتثبت من طريقك، ولشد ما أخاف عليك قلة الخبرة بالبحر وعدم الجلد على الإبحار مالت نفسك إلى المغامرة وأردت تحقيق حلم راودك قديماً ولم تسعفك الأيام في تحقيقه، فقد كنت قائماً على بنيان أكبر منه وأعظم، وما أراك بهذا الاندفاع اليوم إلا

هادماً ذلك البناء الشاهق، فتسيء بفعلك إلى عهد أنت صنيعه وأيام أمدتك بالسعادة وغمرتك بطمأنينة همت فيها فما لحظت عجلة الأيام التي كانت تدور فتسرق منك ذلك الكون الجميل، ستدعي بأنك معذور فيما أحدثت بعد العهد الأول لأنك لا تحب الفراغ فهو يثير الذكرى ويهيج الماضي ويستدعي ألماً، لكن عليك أن تفعل كما فعل أصدقاؤك فتغير مكانك إلى حين انتهاء أعمال البناء في السوق فتعود إلى مكانك منه وتستأنف عملك فلم تفعل ذلك.. أتنزو وقد شخت وجف مخ عظامك.. هيهات أيها المتصابي الخائن للعهد، لكنك لن تهرب من الذكرى ولن تفلت من خيال مريم الساكن فيك يؤنبك.

قلت لها ذات مرة:

أفكر في أن أتخلى عن الفحم وأبيع موقعي في السوق وأنصرف إلى نوع آخر من التجارة، أفتح دكاناً للمواد الغذائية، أو أذهب إلى سوق الملابس.

ـ سألتك، وما الذي أزهدك في تجارتك هذه وماذا تريد غير الربح والزبناء والاستقرار.

ـ لقد سئمت قعدة الشمس وسواد الفحم وغباره، وأريد أن أتخذ لنفسي تجارة أكثر راحة ونظافة من هذه.

ـ استعمل صبياً يزن لك الفحم واتخذ لنفسك كوخاً أو سقيفة تجلس فيها وإياك أن تفكر التحول وقد ربحت في تجارتك هذه وكسبت الزبناء وإنك لا تضمن أن تنجح في غيرها.

ـ من يوم أن نصحتك تلك النصيحة صرفت نفسك عن ذلك التفكير ولم تعد إليه واقتنعت بفكرتها، والحقيقة أنك لم تكن تعرف إلى أين تتحول إن أنت تركت تجارتك تلك وخفت الفشل فآثرت الاستقرار على ما أنت عليه، ولو اطلعت عليك مريم اليوم لغضبت عليك غضباً شديداً، لقد خنت العهد ستقول خارت قوتي ولم يعد جلد على ممارسة النشاطات التي تقتضيها تجارتي تلك وستعلل بأن الأولاد لا يحبون لك ذلك، بل يسوءهم، وما كنت لتقبل التحول لولا إلحاحهم عليك ولكنه مجرد التماس للعذر لن يقبل منك ولن يطمس الحقيقة الصارخة، فأنت انقلب على ماضيك وضيعت العهد وعليك أن تتحمل المسؤولية كاملة.

كان الشيخ سعد بوه قد آوى إلى فراشه عندما تواردت عليه تلك الخواطر فنزع الغطاء عن جبهته يناجي خيال مريم في الظلام.

ـ كل همي أن تكوني راضية عني، انظري، لم أفرط في شيء بعدك، ها هو أحمد صار ضابطاً في

الشرطة وعبدالله تقوى مركزه، وولدي محمد الأمين يعطل معنا كل سنتين، والبنت عائشة إن أرى إلا أنها مرتاحة في زواجها فهي تزورني من حين لآخر وتبدو مسرورة، هل أنت راضية عني؟ إن كان عملي الجديد لا يرضيك أتركه وأتهيأ للعودة إلى مكاني في السوق بعد أن ينتهي بناؤه، سيغضب أبناؤك ولكن رضاك أهم عندي فليسخطوا، فلتسخط زوجة أحمد ما أحسبك تعرفينها، أبوها مفوض شرطة وهي وقحة، يبدو أن أمها لم تعلمها الأخلاق الحسنة.

يكفيك أنها لا تعرف لي حرمة وأنا الشيخ الكبير والد زوجها، لم تزل بأحمد تراوده أن يثنيني عن عملي، وتتدخل تريد أن تقنعني بذلك، أفّ لبنات هذا الزمان فإنهن لا أخلاق لهن، لقد كرهتها ولولا شرع الله لأمرت أحمد أن يطلقها، لكن لا تقلقي فهي أم سعد بوه الصغير، نعم هي أم ذلك الصبي الصغير الجميل، إنه يشبهني جداً وأنا أفرح به وألاعبه وأداعبه، إنه يعرفك جيداً وغداً عندما يأتي صباحاً يريد فطوره، سأخبره أني لقيتك وأنك تسلمين عليه وتقبلينه هل أنت راضية الآن؟ لن أفعل ما يغضبك وسأرعى أبناءك إلى أن أموت فهم بعد صغار حتى بعد أن توظفوا واستقلوا وسوف يبقون صغاراً إلى أن ألحق بك فلا تقلقي عليهم، أعرف أنه

يسوءك أني ما زلت أعمل فأنت تحبين لي الراحة خصوصاً بعد أن توظف الأولاد وتمحضت لي عائدات تأجير منازلي، فليس هناك ما يدعوني إلى العمل، لكنك تعرفين أني لم أتعود جلسة البيت أحري وإن كانت تجاورني فيه تلك الفتاة الوقحة (الزهرة) فأنا أكره جوارها أرجو أن أموت قبل أن أهرم خشية أن يدركني العجز فلا أجد جارة غيرها.

ستمتهنني لا محالة ومن يدري فقد تقتلني، امرأة نزع الله من قلبها الرحمة لو رأيتها وهي تضرب الصغير سعد بوه، لقد أغاظني ضربها له مرة فنهرتها وأنذرتها أن تضربه في حضرتي، فغضبت واتخذت كلامي ذريعة غادرت بها البيت وقد ارتحت في غيبتها وعندما عادت عاودني الألم والكآبة وصرت لا أطيق البقاء في المنزل نهاراً، فكنت أخرج أزور أصدقائي القدماء ودفعني ذلك إلى الإلحاح على أحمد أن ينتهي بسرعة من إعداد المحل، قد تكونين غير راضية عن ذلك ولكن لو رأيت المحل لرضيت إنه مكان جميل سيجلب لي الراحة والطمأنينة وهذا أمر يسرك، حانوت كبير فيه بضاعة كثيرة أكثرها معلبات غذائية ومشروبات أقدر أني سأكون مرتاحاً عندما أتعود على العمل فيه.

أحس الشيخ سعد بوه بالنعاس في جفونه ويسرقه

من مناجاته الجميلة فجذب الغطاء على جبهته، ونام نوماً هادئاً بعد أن اطمأن إلى أنه قدم التوضيحات اللازمة وبرر موقفه، فبإمكانه إذن أن ينام مستريحاً استعداداً للبداية والمرحلة الجديدة التي يقبل عليها محتاراً غير واثق مما يخبؤه له الغد، وإن كان إلى التفاؤل أقرب منه إلى التشاؤم.

الـــدوار

غدا الشيخ سعد بوه على المحل فوجد البائع قد سبقه إليه فسر بذلك إذ فيه دلالة على التمرس بالعمل والجدية. اتخذ الشيخ مجلسه في ركن من المحل خال من البضائع مقرباً مواعين الشاي وبدأ في تحضير شاي الصباح، وكان يتابع ما يجري في المحل من حركة منقلاً نظراته بين البائع والزبناء يريد أن يفهم ما يجري ويعرف مواقع البضائع وأسعارها يريد من ذهنه الذي تعود على بضاعة واحدة ويده التي لم تفقه غير حركة واحدة، أن يتعودا على هذا العالم الجديد أن يفهمه هذا الاختلاف والتنوع، يتخيل نفسه واقفاً يناول المشترين حوائج مختلفة ويتحرك باستمرار في كل الاتجاهات كما يفعل هذا البائع المتمرس النشط، ويسأل نفسه متى أصل إلى تلك المرحلة وأحصل على هذه الدرجة من الإتقان، بهره الرجل وهو يتناول الأشياء بسهولة وسط رفوف كثيرة تعج بالعلب

والأكياس ويستدق ما بينها من فروق، بدت العملية سحرية بعض الشيء، كانت عيناه تضيعان وسط زحام العلب والبضائع، يرجع النظر باحثاً عن المكان الذي اختطف منه الرجل العلبة فلا يميزه، تصور المحل عالماً كبيراً من الاختلاف والتجانس والفروق الدقيقة وحركة مستمرة يعجز، بائع الفحم عن أن يستوعبها، الأمور هنا تجري بسرعة قد يمضي وقت طويل قبل أن يستوعبها ويجاريها، لقد خرج من عالم الجلسة المتأنية والكيلوجرامات المعدة يتناولها الزبون بسرعة دون أن يتحرك هو من مكانه، خرج من ذلك العالم البسيط المتأني إلى عالم المعلبات الغذائية والمشروبات وأدوات التجميل والمقتنيات الكمالية وبقدر ما اغتبط بهذا العالم الجديد بقدر ما أرهبه أيضاً وخشي على نفسه الانخراط فيه فلم يكن يستطيع تقدير النهاية ودرجة النجاح أو الفشل ولذلك خاف، بيد أنه لم ينو التراجع، بل كان يجد في نفسه نداء داخله يغريه باللعبة ويدعوه لمتابعتها وبين الحين والحين كان يثير نفسه رؤية البائع يناول زبوناً علبة سجائر أو غليوناً فيهم بالتدخل ثم يتمالك نفسه ويقول سوف نضع حداً لهذا الأمر فيما بعد، أما الآن فينبغي أن أسكت وأتابع، ثم يثور برأسه نداء آخر يقول لا ينبغي أن نسكت على هذا أو تصادق عليه، السجائر حرام والربح منها نار مؤكدة ينبغي أن توقف

هذه العملية فوراً، أنت صاحب البقالة وأنت المسؤول عنها ومحاسب على كل ما يجري فيها فلا تهمل مسؤوليتك، تنازعت نفسه بين النداءين وغم من كثرة ما ضبط نفسه هذه وناجى نفسه: هذه الخبيثة تباع بسرعة هائلة كأن الناس في هذا الشارع لا يشترون غيرها، لا تصفوا نفس الواحد قبل أن يعض بأسنانه على غليون تتأجج ناره ثم يطلق الدخان من مناخير تذكر بفوهات المخبزة القديمة في حيه انتهى من صنع الشاي وهو يصارع نفسه ولم يكد يضع المواعين بجانبه حتى دخل رجل المحل ومد يده بورقة نقدية وهو يقول:

ـ بعني علبة سجائر المارلبورو.

ـ تناول البائع العلبة واختطف الورقة النقدية وقبل أن يحاسبه تدخل الشيخ سعد بوه وهو يقول:

ـ لا تبعه إياها، نحن لا نتاجر بالسجائر، رد عليه نقوده، السجائر حرام وربحها حرام.

نظر الرجلان باستغراب إلى الشيخ سعد بوه وتوقفا عن الحركة لحظة يستجمعان نفسيهما، كأنما أخذا بما سمعا فجأة فقد بدت القضية غريبة في توقيتها وظروفها أما الزبون فقد رأى في تقبض يد البائع حيرة فاستحثه أن يدفع له نقوده استعجال الغضبان ثم رمى العلبة على

طاولة الصرف ولم يتردد البائع حين رآه فعل ذلك فدفع إليه ورقته النقدية ثم نظر إلى الشيخ الذي ما زال واقفاً وقال:

- ما هذا لماذا قلت ما قلت؟

أحس الشيخ سعد بوه في كلام البائع غلظة وتحدياً لم يعهدهما فقال بإصرار:

- لأني لا أريد أن آكل من حرام أو أنتفع به، وأرجو أن تنزع هذه العلب بسرعة.

فار الدم في رأس البائع، لقد اشتغل في هذه البقالة زمناً طويلاً مع مالكها الأول ولم يتعود أن تقدم إليه الأوامر الصارمة في شأن البيع فهو أعرف الناس بما يشتري أو يباع، تعود أن يعمل بحرية ولذلك حين ألح عليه أحمد أن يبقى في البقالة اشترط هو أن يكون أمر البيع بيده، فقبل أحمد ذلك وأخبره أن والده سيعمل معه، ثم أثنى على أبيه باللين وسهولة الانقياد، ولقد أصابه موقف الشيخ بالدهشة ودفعته حرارة الطبع شد الحبل حتى النهاية.

إما أن أبيع على سجيتي أو أترك هذا المحل.

أجابه الشيخ:

- بع على سجيتك، ولكن لا تبع السجائر فأنا لا أريدها هنا.

ـ سنخسر كثيراً إذ لم نبعها فالزبناء يشترونها أكثر من غيرها وإقبالهم علينا رهن بوجودها.

أغضبه تحدي الرجل، ومساومته في الأمر، ولم يكن يعرف طول المساومة لأن تجارته لا تحتاج إلى ذلك كثيراً فعمد إلى العلب وبدا ينزلها ويضعها في كيس، ولما رأى البائع منه ذلك ازداد غضباً واعتبر الأمر تدخلاً في عمله وحجراً على حريته، فما كان منه إلا أن هوى تحت طاولة البيع ومد يده إلى كيس نايلون يضع فيه ثيابه فاختطفه ثم خرج دون وداع أو التفات هم الشيخ سعد بوه أن يناديه ولكنه تراجع معتبراً أن ذلك قد يحسبه الرجل ضعفاً فلا يقيم له وزناً بعدها، اختار أن يحافظ على قوته وصرامته ولو كان في ذلك خسرانه لخبرة هذا الرجل الجيدة، وعلل نفسه في ذلك بكثرة البائعين المهرة. جمع الشيخ سعد بوه علب السجائر في أكياس فارغة وجلس على كرسي البائع يتلقى الزبناء، فكان يدخل عليه من حين لحين زبون فيجد صعوبة في إعطائه ما يريد، إذ تختلط في عينه الأشكال والأسماء فلا يميزها، ومن الزبناء من يساعده في البحث فيوجهه إلى البضاعة ولكن تبقى مشكلة الثمن وإذا لم يكن المشتري يعرفه فلا يوجد حل آخر، ومنهم من يضجر بسرعة فيخرج تاركاً الشيخ مستغرقاً في البحث عن

البضاعة، وبعد أن يتعب في البحث يستدير فلا يجد الزبون، فيصب عليهم غضبه:

لعنة الله عليهم يتعبونني بالبحث وهم لا يشترون، وهذه العلب أف لها من بضاعة يحار المرء فيها كيف يمكن أن أهتدي إلى مكان كل بضاعة عندما أطلبها، بم أميز هذه الرفوف المتشابهة من العلب لعنة الله عليك يا ابن الجنية تركتني وحيداً وذهبت.

انقلبت فرحة الإقبال الأولى إلى حسرة وتعب لم تكن العملية سهلة فهو لم يتعود على هذا التنوع الهائل وتلك التفاصيل الدقيقة، كانت البضاعة جنساً واحداً والعملية بسيطة محدودة والسعر معروف.

- أريد خنشة من الفحم.

- اختر لنفسك واحدة.

يناوله الثمن ثم يأخذ خنشة ويذهب.

- أريد كيلوجرام فحم.

- خذ إحدى تلك المخالي.

فيأخذها ويناوله الثمن ثم يعود أدراجه، لم يكن الشيخ يتحرك من مكانه حتى الوزن كان يستعمل له صبياً مقابل أواق يدفعها له وها هو طائش اللب حائر

العينين يذهب ويعود، يفتش بين الرفوف عن أشياء لا يعرفها وأسماء لا يتبينها، يأخذ العلبة ويتفحصها يريد أن يرسخ علاماتها في ذهنه لكن الألوان متشابهة والأحرف اللاتينية آنى له أن يفك مغاليقها؟ لقد كانت مريم على حق حين قالت إن تجارته سهلة مريحة لا تتطلب جهداً ولا تعني عناءً كبيراً ولذلك عارضته عندما عزم على التحول عنها فبقي على تلك التجارة أزيد من ربع قرن سنوات جميلة نعم فيها بالراحة والربح الوفير، وها هو اليوم يتربع على كرسي في أبهة البضائع وقد طمحت نفسه إلى أن تكون التجربة أحسن من القديمة ولكن هذه البداية التي بداها ليست مشجعة لقد أظهر له خروج البائع صعوبة العمل واستحالة إدارته له من دون يد خبيرة، فطفق يجيل نظراته بين الرفوف الملأى:

إذا لم أجد بائعاً خبيراً فلن أستطيع العمل، ولن أبيع شيئاً ها هم يرجعون دون أن يشتروا مني، يا لهم من شياطين، لقد كان زبائني فيما مضى مخلصين لا يستعجلون ويأخذون دائماً ما يريدون، أما هؤلاء فأهل الشارع، مارة مستعجلون دائماً، المحلات منتشرة ولا شيء يحبسهم عليّ، لماذا اختار أحمد بقالة لأعمل فيها؟ كان يجب أن يختار لي بضاعة غيرها، بضاعة مفردة أبيعها مستريحاً، صخب هذا المكان لا أطيقه،

لعنة الله على هؤلاء القوم يملأون المكان بالضجيج. أما يستريح هذا الفتى النزق من استبدال الأشرطة، لن أستطيع الصبر عليه، ما أهدأ السوق القديم، لغط الباعة أخف من هذا الضجيج هنالك لا تسمع إلا أصوات بشر عاديين، أصواتاً تخف وتهدأ في بعض الأوقات، أما هنا فأصوات لا تنقطع مستمرة ليلاً ونهاراً، دكاكين الأشرطة وأزير السيارات، ثم ماكينات الطحين التي تصلني أصواتها كالرجفة حتى ألوان الطلاء ومرايا الأبواب تشارك في هذا الصخب، أليست لهم أدمغة؟ ألا يشعرون بالتعب والانزعاج؟ أما يحتاجون إلى الراحة، ما أسوأ اختيارك يا أحمد، ترمي بي وسط هذا الضجيج وأنت تعرف أني لا أطيقه، كنت أحرم عليكم المسجلات والأشرطة ولم يكن في المنزل على عهد مريم غير مذياع يستعمل لسماع الأخبار، وكنت إذا جاءني صوته، وأنا نائم فأيقظني، أكاد أهشم رأس من شغله منكم ولكن.. أحمد معذور.. أنا الذي اقحمت نفسي في الوحل وها أنا مكتوف الأيدي حائر لا أعرف ماذا أفعل، وهم أولاء يطلعون عليّ فيولون فراراً.

أخذت نفس الفتاة فتراجعت متهيبة، ثم أدارت وجهها إلى صديقتها مولية وهي تقول:

- روعتني هذه اللحية، يبدو أن البائع يعقوب قد رحل.

أطلت الأخرى داخل البقالة ثم قالت:

- إنه البدل الأعور.

- أو البدل الأشيب.. هيا بنا.

وتجاوزتا قال الشيخ سعد بوه مسمعاً نفسه:

- لعنة الله عليكما من فتاتين، أجئتما تشتريان أم جئتما لشيء آخر، هل يميز بين الشيخ والشاب في التجارة؟

كل الناس في السوق كانوا يشترون مني ولا ينظرون إلى لحيتي، إنها ليست من البضاعة، هذه واحدة أخرى كلما تقدمت ستجد أن الوحل يزداد ويتعمق، الشاطىء ما يزال قريباً فالأحسن أن تقفل راجعاً قبل أن يبتلعك الطين، مضلة هذه الأرض التي دخلتها وفي كل مرة يتبدى لك منها ما لا تحبه. أكانتا تبحثان عن شاب يغازلهما ويطارحهما الهوى، أليس هذا محل بيع، أم أن مثلي لا يحق له أن يقف هنا وهل يريد الزبناء إلا حسن المعاملة وإيفاء الكيل، والشيوخ أسرع في ذلك من الشباب. ولكن الشباب أكثر حيوية ونشاطاً من الشيوخ وأنت لا تقوى على الجلوس طول

النهار وطرفاً من الليل على هذا الكرسي، ولست سريعاً في مناولة المشتري ما يريد، ستقول: إن هذه أمور يتعود عليها، وإن لك عليها جلداً إن فقهتها وهيهات أن تفقهها، دخل رجل وقال له:

ـ أعطني علبة من السجائر وعصير فاكهة وكيلوغرام برتقال.... وكيلو.

ـ السجائر لا نبيعها.

أراد أن يناوله الطلبات الأخرى ولكن الرجل كان قد إنثنى راجعاً، توقف الشيخ حائراً مهزوزاً يحدث نفسه: هذا الرجل هو الآخر ضائع مثلهم جميعاً لا يعرفون ماذا يريدون ولا يثبتون حتى أعطيهم ما يطلبون مستعجلون دائماً فلا يرون حقائق الأشياء. في عيونهم نظرات جنون طائشة يحملق الواحد منهم في ولا يراني أناس تسوقهم الشياطين إلى وجهة غير محددة لقد سكنتهم هذه السيارة وحفر الشارع في أدمغتهم وانتقلت إليهم عدوى الأزيز والحركة، الشريط يدور في رؤوسهم دائماً وعلى إيقاعه يجرون، إن أحسب إلا أنهم لم يذوقوا طعماً للنوم ولا يجدون راحة البال، وكيف يرتاح من امتلأ دماغه بالماكينات والأشرطة والمنبهات.

وعلى إيقاعه كانت نفس الشيخ سعد بوه تتقبض

وهو يصغي إلى تلك الأصوات الصادرة عن الحوانيت والمحلات المجاورة له وهي خليط من أبواق دكاكين الأشرطة وماكينات الطحين ومسجلات تزيدها قوة أصوات منبهات السيارات ومحركاتها، وكان الشيخ سعد بوه يتقبض أكثر ويحنق لهذا البوق المعلق على واجهة محل الأشرطة المقابل لبقالته وقد رأى داخل المحل فتى مراهقاً كان يخرج من حين لآخر ثم يعود وكان يظن أن حدة الصوت يمكن أن تخف عند الزوال ولكن هدوء أصوات القيلولة وخلود الناس إلى الراحة قليلاً لم يزد صوت البوق إلا علواً وارتفاعاً فكان إن عزم على مطالبة الفتى بخفض صوت بوقه ونصحه أن يخفف من الضجيج وإزعاج الآخرين فخرج من بقالته وقطع الطريق ثم تقدم إلى الدكان مسلماً على صاحبه، رد الفتى عليه السلام وهو يخفض من صوت بوقه، فقال الشيخ:

ـ أنا صاحب البقالة الجديد وقد أزعجني صوت بوقكم هذا فأرجو أن تخفضوه فهذه الأصوات المزعجة تصم الآذان وتسيء إلى صحتنا جميعاً.

قال الفتى دون مجاملة:

ـ أنا أبيع الأشرطة ولا بد أن أجلب إليَّ الزبناء بهذه الأصوات؟

- يكفيك من هدايتهم أن جعلت دكانك على الشارع ورفعت فوقه اللافتة.

- أنا أعرف بما يهديهم وما يجلبهم إليّ.

- على كل حال أنا جئت أنصحك وأذكرك حق الجار وأعلمك بعدم رضاي.

- ليس عليك نصيحتي ولا يعنيني شيء في رضاك أو سخطك.

لم يكن الشيخ آتياً للخلاف والخصام بل كان يريد أن (يذكره حق الجار) كما قال، ولذلك عاد أدراجه دون أن يرد على جملة الفتى الأخيرة والذي بدا متهيئاً سريع الانفعال.

تراجع الشيخ إيثاراً للسلامة حين رأى من الفتى تهيؤاً وسرعة انفعال لا يجدي معهما الكلام ولا النصيحة، وليس من طبع الشيخ الخلاف مع الغير أو الخصام فهو سكوت منصرف لشأنه وهو ودود بشوش، كانت خلافاته محدودة ورغم ذلك، وربما لذلك لم يكن يسلم من لحظات غضب عنيفة تعتريه في بعض المواقف ولكنها نادرة متباعدة في الزمن وسريعاً ما تزول آثارها ولهذا السبب أسرع بالانسحاب من الموقف وسكت لئلا يجره ذلك إلى الانفعال والانفجار فإن حدة

الفتى تهدم جبال الصبر، رجع وهو يلعنه في نفسه ويزداد عليه حنقاً واحتقاراً، استلقى على الفراش القصير في الجانب الشرقي من المحل وهو مكان شبه خال من البضاعة أعد أصلاً للجلوس يطل على الأبواب، ووقت القيلولة تهدأ فيه حركة البيع، يستطيع إذن أن يأخذ قسطاً من الراحة وشيئاً من التوازن في نفسه التي اضطربت منذ الصباح والتي زادها هذا الفتى المتوثب اضطراباً.

وهل كنت أنتظر منه غير الطيش، لن يكون ذلك الفتى إلا مثالاً من هذا العالم الطائش حوله، الناس والأشياء بل لن يكون إلا أطيشهم وأبعدهم غواية، أناس ضلوا طريقهم والشارع يمتد خطياً موقعاً على رؤوسهم فينهمرون معه كخرزات السبحة، يبتلعهم فيغرقهم في سواده. القار الأسود يجري في عروقهم، لقد احترقت دماؤهم والشريط الأسود يمتد بلا نهاية وهم يلهثون وراء الامتداد، تلفت نعالهم فحفيت أقدامهم وانتزعت الريح ما خف من أثوابهم ورفعت أجزاء مما تبقى حتى بدت سوءاتهم. أيديهم متشبثة بالشريط يمدونها إلى الأمام ابتغاء النهاية أو حذر السقوط، ولسوف يسقطون عما قريب أو تسقط أثوابهم فيتعرون وإن طلبوا طريقاً للرجوع أو الستر فلن

يستطيعوا ولن يهتدوا إليها وسيدركون أنهم قد كتب عليهم التيه ولو كانوا فتحوا أعينهم من قبل لاستراحوا ولما ضلوا الطريق. لم يكن زبنائي فيما مضى مستعجلين فقد اطمأنوا لحياتهم وأنسوا الرشد في ما يفعلون فاقتنعوا به وأتوه في تؤدة وتراخ كانت السوق كبيرة تحجب عنا الشارع والمباني متباعدة يموت الصوت بينها فلا يتردد كما يحدث له هنا بين هذه المباني المتراصة التي يخنق بعضها بعضاً فيتردد الصوت كالصاعقة وينفذ إلى الأدمغة فيغليها، سوف أفارق الراحة ويسكنني الجنون الحركة وإني لا أقوى على ذلك المصاب في مثل هذا السن، فلأغادر هذا المكان. ولكن ماذا سأقول لأبنائي لقد بذلوا أموالهم وأنفقوا الكثير ليعدوا لي هذا المحل الفاخر، سيقولون إنني وأنا أبوهم قد خدعتهم وإن كانوا لا يصرحون فذلك شيء في النفس، وأنا أكره أن أفارق غداً فألقي مريم وقد أسأت إلى أبنائها خصوصاً وأنني قد قبلت الواقع الجديد وصرفت النظر عن ما كنت عليه في الأول بعد أن راودونني، سيظنون بي الظنون لم أكن أريد أن أتحول عن تجارتي الأولى ولكنهم لم يزالوا بي حتى صرفوني عنها ولقد ظلموني، أيأنفون أن يكون أبوهم بائعاً للفحم، إنها مهنة شريفة، بها ربيتهم وعلمتهم حتى وصلوا ما هم عليه، عبدالله أكبرهم

وأسرعهم إلى شقاقي يدعي أنه يسعى لأن يكون وزيراً ولذلك يريد لنفسه سمعة طيبة، أيها الوقح وأي شيء أطيب من دراهم ربح حلال، وماذا أريد أنا من وزارتك وسياستك، إنني غني عن ذلك لدي من المال ما يكفيني بقية حياتي ولكني أحب أن أعمل، وأكره الفراغ، وأحمد هو الآخر لا يألوا جهداً في مواجهتي رغم أنه أصغر إخوته ولكنه ليس بوقاحة عبدالله فهو لا يجافيني ولا يلومني ولا يتهمني وأعرف أن الذي دفعه إلى ذلك هو زوجته، لقد قالت لي غير متهيبة:

ـ آن لك أن تستريح ولم يعد يليق بك أن تجلس بين أكوام الفحم تمر عليك المارة.

ازدردت المرارة في نفسي، أية وقاحة هذه، تتجرأ علي وتحدثني بهذه السهولة وأنا والد زوجها، أمر لم أشاهده في حياتي من قبل، فجاجة وسوء خلق، ترحمت في دخيلتي على مريم لقد كانت تستحي أن تخاطب أقاربي من الرجال الذين هم أكبر مني أحرى أن تتدخل في نقاشي معهم، وذات مرة تدخلت في خصومة بيني وبين أخي الأصغر فأعانته عليّ وكنت أبيت أن أمول له مشروعاً لسفهه فلم تزل بي حتى فعلت، أما الشيوخ فلم تكن تجرأ أن تقترب منهم أحرى أن تكلمهم ولكن ألسنا في عالم الجنون،

إن هي إلا فتاة من ذلك العالم الذي يسكنه الجنون والحركة والوقاحة ويريد أبنائي أن أرمي بنفسي في الوحل قد يكونون هم أيضاً أصيبوا بما أصيب به غيرهم، أما عبدالله فإن الشأن معه قديم فقد كان يأنف أن يخلفني حين أريد الذهاب لبعض حاجتي وإن أصررت على استخلافه فإنه يجالس الباعة الآخرين ويراقب المكان من بعيد وكان يبيع الزبناء وهو واقف ثم ينصرف إلى مجلسه الأول مع أحد أصحاب الدكاكين المجاورة لا يحب أن يرى جالساً بين أكوام الفحم تحيط به الخنشات، كنت أريد أن أعوده على العمل وعلى تحدي الناس ولكنه كان ضعيف النفس فاقد العزم فلم أفلح معه، واليوم ها هو يطمح إلى أن يكون وزيراً أو شخصية من أهل السياسة والنفوذ عجباً لهذا العالم كيف يستطيع شخص ضعيف النفس دائم الغضب مثل عبدالله أن يرتقي في الدرجات العليا لولا كان ذلك أخوه محمد الأمين فهو أحق بهذا منه أو حتى أحمد، لو كان محمد الأمين حاضراً لما وجد غضاضة في أن أبقى على تجارتي الأولى ولما لقيت منه العنت الذي لقيته من عبدالله لقد تركتها مكرهاً وما صرفني عنها إلا أنه شاقني فيها سامحك الله يا عبدالله تريدني على ما تحب ولا تفكر فيما أحب، المهم عندك أن أترك عملي، أن أتخلص من الفحم أياً كانت

نتائج ذلك عليّ ها أنا ذا تخلصت منه وها إني أقعد في هذا المحل الكبير تصم سمعي الأصوات المزعجة، يطل عليّ الزبناء ثم يتجاوزونني، أو تراني أصبر على هذا الحال؟ أو أجد جلداً على ذلك.

أتعبته القعدة وسئم البحث المتواصل عن البضائع وضايقه السلوك الوقح من بعض الزبناء ومرت ساعات الضحى طويلة فحمل إليه إيقاعها الرتيب إحساساً متنامياً بالكآبة جعله يدخل في مشادات كلامية مع بعض المشترين فكانوا يتركونه ويذهبون إلى البقالة الأخرى القريبة ولم يأت المساء إلا وقد أنهكه التعب وخارت قواه.

لم يَشَأ الشيخ سعد بوه هذه المرة أن يغير عادته القديمة حيث كان ينتهي من عمله في السوق مساءاً عندما تغلق الدكاكين أبوابها ويخرج أهل السوق منها، ويرجع إلى أهله فيستريح ليله، فأغلق أبواب البقالة عند صلاة المغرب على غير عادة البقالات التي داوم أصحابها الليل والنهار أحرى في هذا الشارع الذي لا يهدأ فيه شيء ولا تسكن حركته فقد تعود الأضواء والسهر ولكن الشيخ لم يفكر إلا في تعبه، وكذلك فقد قدر أنه لا يليق به وهو في هذا السن أن يغير تلك العادة الجميلة ولكن الأمر قد لا يكون مستساغاً في ظل

عدم وجود بائع ينوب عنه في المحل وعلل نفسه بأن هذه ما تزال بداية وسوف تستقر الأمور ويجد بائعاً يسهر في المحل.

تاريخ السجائر

شق الأمر على أحمد حين أعلمه أبوه بما وقع وأخبره بأن البقالة مغلقة، إن ذهاب البائع كارثة فهو بائع أمين وماهر كما قال له صاحب البقالة الأول الذي اشتراها منه ولقد قبل يستأجره بأجر يفوق أجور أمثاله من الباعة إن البقالة كانت ستربح ربحاً خيالياً أما بدونه فسوف تخسر لا محالة إذا لم يستطيع أن يجلب لها بائعاً في مهارة وأمانة هذا البائع، قال لوالده:

ـ كان ينبغي أن تمنعه من الذهاب، لو احتفظت به لأمكننا التفاهم معه.

ـ لم أستطيع أن أمنعه.

ـ حين رأيت أنه يتعرض على رأيك فاتركه كما يشاء حتى نجتمع جميعاً فنقنعه بما نريد.

ـ ليس في الأمر مساومة، الحرام حرام ولا يجوز الانتفاع به.

لم يستطع أن يلوم أباه أكثر من ذلك ولو كان يستطيع أن يناقشه في حرمة السجائر لفعل، ولكنه رأى في ذلك وقاحة وجرأة، فهو لا يستطيع أن يذكر اسمها في حضرته، أحرى أن يجادله في حرمتها وكان الشيخ سعد بوه من أشد الناس كراهة للتدخين ويطلق على التبغ تسمية (الخبيثة) ولم ينس أحمد ثورات أبيه القديمة التي كان يثورها حين يشم رائحة التدخين في المنزل، فكان يقبل عليه هو وإخوته ضرباً وتعنيفاً ولقد تعودوا أن يتركوا سجائرهم عند صاحب الحانوت ويغسلوا أفواههم بعناية عندما يريد الواحد منهم دخول المنزل بعد أن يدخن، وكذلك ينفضون أثوابهم حتى لا تفوح الرائحة الكريهة وهم بحضرة أبيهم، وما زال أحمد إلى اليوم إذا أراد أن يدخن يتخذ مكاناً من المنزل لا تصل منه الرائحة إلى والده ولا يجرؤ أن يترك علبة السجائر مرمية بجانبه عندما يكون في ردهة المنزل مخافة أن تقع عين أبيه عليها، كان أبوه أشد الآباء في مسألة السجائر ولم يكن يطيق رائحتها حتى من الرجال الكبار أصدقائه لقد كان مع لينه ورأفته لا يجامل في التدخين ولا يعرف أحد ما مبعث ذلك التعصب، وربما يكون مبعثة حساسيته المفرطة اتجاه الروائح الكريهة والدخان أشد هذه الروائح، ولم تستطع خمس وعشرون سنة من السوق أن تذهب عنه تلك الحساسية واليوم إن هو وقف

في وجه بيع السجائر فإن ذلك لم يكن إلا بدافع من تلك الحساسية حتى وإن تعلل بدعوى شرعية ولو كانت هذه الدعوى جائزة في حقه فهو مؤمن مقيم للصلاة صبور على الطهارة مواظب على المسجد ليلاً، ولم يعرف عنه أنه يأخذ ما ليس له بحق، إلا أن في الأمر شبهة تجعل مسلماً عادياً مثله مطمئناً من كونه لا يفعل حراماً عندما يبيعها.

قال أحمد مستفهماً من أبيه:

ـ هل بعت اليوم شيئاً.

ـ ليس شيئاً يستحق الذكر أنا لا أعرف البضائع ولا الأسعار والزبناء مستعجلون دوماً.

هذه كارثة أخرى لقد ظن أحمد الأمر بسيطاً وأنه سيربح بمجرد أن يفتتح البقالة ويدفع مفاتيحها إلى أبيه وبائع معه، ولكن اتضح الآن أن الأمر ليس سهلاً، بل لا بد من مشقة وتعب، والربح في النهاية غير مضمون، سوف يبدأ الآن رحلة البحث عن بائع وإن وجده فسوف يراقب عمله وعليه أن يعرف الأسعار فقد يضطر هو الآخر إلى أن يعمل.

ـ لكن.. أين سنجد بائعاً جديداً.

ـ إنهم كثيرون ولن نعدم أن نجد واحداً منهم.

- المشكلة في أمانة الواحد وصدقه في العمل.

- طبعاً.. ولكننا سنجد واحداً أميناً لا محالة.

لم يكن لدى أحمد متسع من الوقت للبحث وليست له أية علاقة بالميدان تجعله يعرف الطريق التي يسلك للبحث عن بائع ولم يكن الليل مناسباً لذلك قرر أن يبدأ من غد اتصالاته ويحاول أن يفرغ نفسه ذلك اليوم لتلك المهمة وأوصى أباه أن يبحث من جانبه.

سر خديجة

كان صباح اليوم الثاني من العمل مخالفاً لصباح الأول فبذهاب البائع ذهبت تلك النشوة والتهيؤ الذين أقبل بهما الشيخ سعد بوه، وبدأت نفسه تنقبض وتفقد ما أحسته في أول وهلة من إقبال وانبهار بهذا العالم الجديد وتكشفت لها أغطية وانزحت ستائر كان يمكن أن تظل زخرفاً جميلاً يحجب ما وراءه من عوالم، وهل كانت نفسه فعلاً ستنسجم مع ذلك البريق دون أن تحس ما بعده من كآبة وجنون إنه لم يتوصل إلى جواب مقنع عن هذا السؤال لأن السفينة لم ترس بعد والأمواج مختلطة عاتية وهو لا يدرك حقيقة المرسى وإن كان توجسه يدفعه إلى تشاؤم يرى التدفق منته إلى هوة سحيقة ولم يستبعد أن تطغى عليه وهو في الطريق فكرة القفز من السفينة قبل نهاية المشوار ولكنه الآن يرى أنه ما زال بعيداً عن تلك الفكرة فالصعوبات طبيعية في كل مرحلة يسلكها الإنسان لأول مرة.

بدأ ذلك الصباح هادئاً راكداً وقد جاء الشيخ إلى الحانوت مبكراً وانتظر بالشاي أن يلتحق به ابن أخيه عبدو الذي أرسل يطلبه وكان عبدو يعمل مع أبيه في حانوته فأراد الشيخ أن يستعين به في ذلك اليوم ويستفيد من خبراته في البيع والشراء وكان قدر أن الأيام الأولى لها دور حاسم في رواج بضاعته واستقطاب الزبناء ولم يبطىء عليه ابن أخيه فقد جاءه بعد سويعة من بدئه العمل ووجده يتخبط لا يعرف ماذا يفعل وكان الفتى لا يعرف أسعار البضاعة لاختلاف بضاعة الحوانيت الصغيرة عن بضاعة البقالات الكبيرة، ولكنه لم تعترضه مشكلة كبيرة وبدأ بيعه بصورة متواصلة وجلس الشيخ يصنع الشاي مغتبطاً بحركات ابن أخيه متمنياً لو كان هذا الفتى فارغاً فهو أنسب من يعمل معه ولكن أباه لا يستغني عنه.

وكان الشيخ يقرب ابن أخيه ويداعبه والفتى لبق بشوش وقد نسجت بينهما صداقة أساسها الدعابة وذلك دأب الشيخ مع أبناء أخيه والأطفال من عشيرته وقد جعله ذلك محبوباً عند هؤلاء الصبية يتلقونه بالفرح والرقص إذا رأوه وكان يزيد حبهم له ما يدس في أيديهم من نقود.

كان الشيخ سعد بوه يصب الشاي بتراخ مستمتعاً

بأحاديث ابن أخيه وحركاته وربما تدخل في بيعه ليرشده إلى بضاعة من البضائع ولما فرغ من الشاي وكان الوقت ضحى وقد انجلى عن الشيخ شيء من غشاوة الكآبة التي تركها عليه اليوم الفائت وزاد انشراحه دخول خديجة فجأة وكانت علمت بافتتاح أبيها للمحل فجاءت تستطلعه وتباركه خصوصاً وأن اليوم هو يوم زيارتها لأبيها وتفقدها لأحواله فقد جعلت يوماً تزوره فيه، وفي أكثر الحالات كانت تغدو عليه وتقضي معه النهار كله ومن عادتها أن تحمل معها دهاناً لرأسه كانت تعده من الزبد والقرنفل وكان يحبه ويذكره بمريم التي ورثت تلك العادة ابنتها، والحقيقة أن خديجة شبيهة بأمها فقد كانت تتعهد بما عرفت عن أمها من تتعهده فتحضر له من الوجبات ما يفضل وتخيط له من ثيابه ما يحتاج إلى خياطة وتغسل منه ما يحتاج إلى غسل وتعلمت الحلاقة لتقوم على حلاقته كما كانت تفعل مريم، قالت خديجة بعد أن ألقت السلام وأدارت نظراتها في المكان وأقرت بصرها على الفتى:

ـ أهذا أنت يا عبدو، وأين البائع الذي حدثني عنه أحمد.

قال الشيخ:

ـ كان معي بالأمس واختلفنا وتركني وخرج.

ـ ما شاء الله هذه بقالة جميلة ومريحة، أرأيت يا أبت لقد أراحك الله من الفحم وشمسه الحارقة وغباره الأسود، أطال الله أعمار إخوتي، هذا محل نظيف لا شك أنك سترتاح فيه.

ـ أرجو ذلك وإن كانت البداية غير مشجعة.

قال ذلك ليوحي إليها بعدم رضاه وليطلعها على الواقع الذي استقبله في هذا العمل الجديد وكان من عادته أن يصرح لها بكل شيء وأن لا يخفي عنها أي شيء فيقص عليها كل شيء في حدود ما تسمح به علاقة والد بابنته ولم يكن من أبنائه الذكور من يضارعها في هذه المنزلة حتى محمد الأمين فإنه لم يحظ بذلك منه على تقريبه له وثقته فيه فقد كان بين الوالد وأبنائه حواجز الأبوة والبنوة وكانت خديجة مؤهلة لأن تشكل جسر تواصل بين الأب وأبنائه بعد اختفاء والدتها التي كانت تقوم بهذا الدور.

كان اختفاء مريم كارثة حقيقية أصابت الشيخ سعد بوه وأبناءه بذهول شديد فقد كانت المرأة ملاك حياتهم وبموتها اكتشفوا أنهم لا يعرفون شيئاً عن ما يدور في البيت وليس لهم اطلاع على كيفية جريان الأمور ثم خفف من إحساسهم ذلك حلول خديجة محل أمها وقيامها بالمسؤوليات على أكمل وجه. سيرت

الأمور كما كانت تسير أيام مريم وأظهرت تلك الفتاة جلداً وصبراً رغم عظم مصيبتها فقد فقدت بموت مريم أماً وأختاً وصديقة، كانت أمها عالمها الرحب الذي تجد فيه الراحة والطمأنينة وقد وجدت عزاءها في أبيها وضحت في سبيل ذلك بمستقبلها في المدرسة إذ تخلت عن الدراسة وهي تحضر لامتحان البكالوريا، وقادت السفينة إلى بر الأمان فاكتسبت ثقة والدها وأصبحت لها كلمة مسموعة داخل البيت رغم أنها كانت الثالثة في الترتيب بعد محمد الأمين ولا يصغرها إلا أحمد.

سارت على نهج أمها فقادت السفينة وفهمت مسؤوليتها فتحملتها بكاملها وكأنما كانت أمها تعدها لذلك منذ فتحت عينيها، لزمت البيت ترعى تطور حياة إخوتها ثماني سنوات وهي هكذا تعمل باستمرار وحيوية ثماني سنوات حدث فيها كل شيء عاد فيها عبدالله من فرنسا بشهادة عالية وتوظف في مناصب سامية وتزوج ثم استقل عن الأسرة وفي هذه السنوات التحق محمد الأمين بالموريتانيين المجندين في شرطة الإمارات العربية المتحدة وسافر إليها ونجح أحمد في مسابقة مفتشي الشرطة الوطنية.

وأخيراً جاءها الحظ فتزوجت، والذي تابع هذه الأحداث يظن كما لو كانت خططت لكل شيء فيها،

حتى زواجها الذي تأخر إلى أن توظف إخوتها، والحقيقة أن لها يداً في ذلك إذ لم تقبل الزواج مباشرة من الذين تقدموا لها بل ردت البعض حتى اختارت لنفسها زوجاً مناسباً، ويوم أن تزوجت اشترطت على زوجها أن تبقى في منزل أبيها إلى أن يتخرج أحمد فيكون معه في البيت، ويوم خروجها من بيت أبيها بكت بكاءاً حاراً قلقاً على والدها، ونكأ ذلك الجرح القديم الذي خلفه اختفاء مريم في نفس الأب المسكين فسالت دموعه وهو يلجأ إلى غرفته منزوياً عن الناس منتحباً، يمتص أحزانه. يوم خرجت مريم من البيت غم وظن أن لن تقوم له قائمة، ولكن خديجة تحملت مسؤولية البيت فخفف ذلك من هول المصيبة التي أصابته ثم عاد الحزن لقد ذهبت مريم نهائياً لم يبق منها شيء وها هو وحده لا يبديء ولا يعيد، وحده في أحزانه، لِمَ لم تأخذه مريم معها عندما قررت الرحيل، اليوم ينحسر ظلها الذي تركت، لأن صبر متعزياً بخديجة فإنه بخروجها اليوم لن يصبر، من الذي سيدبر له شؤونه، كانت خديجة توصي أحمد وتعلمه ما يفعل له وتسيل دمعتها إشفاقاً على أبيها لأن أحمد لن يفي بكامل الخدمات ولن يكون في البيت في الأوقات المناسبة، ولما استقرت في مكانها الجديد ظلت تزور أباها لا تفتر عن ذلك فكانت تأتيه يوماً في الأسبوع

تقضي النهار معه تغسل له أثوابه تمشط له شعره وتعالجه بدهان الزبد والقرنفل الذي عودته عليه مريم من قبلها وورثت هي عنها تلك العادة، كانت تتعرف على أحواله وكان الأب المسكين يستأنس بابنته فيروي لها كل ما يطرأ عليه من بعدها، ولما تزوج أحمد الزهرة صار الشيخ يعد لابنته كل أسبوع حديثاً مفصلاً عن سلوك تلك الفتاة وتعاملها معه وينتقد أحمد الذي لا يفعل شيئاً لتقويم زوجته فتتألم لذلك وتنصح الفتاة وربما أسرت إلى أحمد بشكاية أبيه وألحت عليه أن ينصح الزهرة ويراقب سلوكها.

قالت خديجة:

- وهل سيعمل معك عبدو.

قال عبدو:

- بودي لو أفعل ذلك، ولكن أنت تعرفين أن والدي لا يستغني عني.

قال الشيخ:

- لقد أرسلت في طلبه ليعنيني يوماً أو يومين ريثما أجد بائعاً كفؤاً فأنا كما تعلمين لا أعرف إلا عمل أهل السوق وبيع الفحم.

- هذا علم ساعة وستجده أسهل من بيع الفحم.

- هيهات لا أظن أن هنالك تجارة أسهل من تجارتي، وهنالك شيء لا أحسب أني سأجده هنا، في السوق كنا أهلاً وإخوة وأصدقاء، شاينا مشترك والأطاجين كذلك، كنا أسرة واحدة أما هنا فليس بيني وبين أحد أية رابطة، أهل المحلات والزبناء لا أجد منهم إلا الإزعاج.

- ستتعرف عليهم بعد أيام قليلة وتصبحون أسرة واحدة.

قال الشيخ متشائماً: لا أظن.

لم يستطع الشيخ أن يخفي مخاوفه وتعلقه بالسوق القديمة التي لم يكن يوماً ينوي تركها وعندما رحل أهلها واتخذت ساحتها لبناء سوق جديدة لم يذهب إلى المكان الجديد الذي خصص لأهل السوق القديمة لبعده وانعزاله ولأنه كما تعلل بذلك مراراً يحب هذا السوق ولا يريد أن يستبدل زبناءه بغيرهم فجاء بالفحم إلى منزله وكومه فيه وقعد ينتظر بناء السوق الجديد فيعود إليها ولكن ابنيه عبدالله وأحمد وجدا في ذلك فرصة لتخليصه من تلك التجارة التي لم يكونا راضيين عنها خصوصاً بعد أن لم يعد بحاجة إليها، فقد كان له من ماله ومالهم ما يغنيه عن العمل بقية حياته وكانا يريان أن بقاءه على العمل في بيع الفحم عار يلحقهما وقد

راودوه أن يتركه وكان رفضه مبعث جفوة جعلت عبدالله قليلاً ما يزوره ولولا تدخل خديجة لانقطعت الصلة بينهما وفي هذه المرة كان الخلاف عنيفاً بين الوالد وابنه وكان عليه أن يختار بين تجارته وأبنائه أو على الأقل بينها وبين واحد منهما هو عبدالله وقد أصر الشيخ على التشبث بتجارته متعللاً بأنه لا يتحمل الفراغ ولا الجلوس في المنزل ولا يحسن حرفة غير حرفته فيستبدلها بها ولم يقبل اقتراحه بأن يتخذوا له بدلاً منها بقالة يشرف عليها، ووصلت الأزمة أشدها في تلك الليالي حيث خرج عبدالله غضبان منفعلاً يلوم أباه.

هكذا أنت دائماً.. لا يهمك رأينا ولا تقيم لنا أي وزن كأنما تبغضنا. وأنا أولهم ولكن أعاهدك أني سأريحك مني ولن تراني بعد اليوم.

خرج عبدالله وهو يتميز غيظاً وقد أصر على ما أصر عليه وبقي الشيخ سعد بوه صامتاً متألماً لاتهام ابنه له واحتار أحمد في الأمر ثم تذكر أن خديجة يمكن أن تنقذ الموقف فغدا عليها واستحثها لإقناع والدها، ولم تكن خديجة كأخويها فقد كانت تعذر والدها في إصراره على عمله ولا تطالبه بتركه، وإن كان يسرها أن يتركه ولكنها وجدت نفسها مرغمة بعد زيارة أحمد أن تتلافى الشقاق الذي سيعود بنتائج سيئة على الأسرة، فبادرت

تريد أباها ولم تزل به تتضرع إليه وتبكي حتى وعدها أنه سيفكر في الأمر وذكرت له أن محمد الأمين في آخر مكالمة هاتفية معها طلب منها أن تبلغه رجاءه له أن يقبل اقتراح عبدالله وأحمد، وفرحت خديجة بوعد أبيها، والحقيقة أن الشيخ سعد بوه كان قد صدم بموقف عبدالله وبما عزم عليه، ولم ينم ليلته تلك حتى أقر نفسه على أن يتخلى عن عمله إرضاء لأبنائه ووفاء لذكرى مريم التي يخشى أن يلحق بها وهو مجاف لأبنائه فآثر الاستسلام، ولم يكن من سلوكه التراجع عن أمر اقتنع به وأراده، فقد كان صلب الرأي في مثل تلك الأمور ولما أفضى إلى ابنته بعزمه على التفكير في الأمر أسرعت تبشر أخويها، وتستعجل عبدالله أن يسترضي أباه قبل أن يرجع في وعده، وجاء عبدالله بزوجته وأولاده يتقرب إلى الشيخ بهم وكان للمرأة وأبنائها حظوة عند الشيخ وهو يمتدحها دوماً، جد الأبناء في الأيام التالية في البحث عن بديل لبيع الفحم واهتدوا إلى هذه البقالة التي كان صاحبها يعدها للبيع، فدبروا المبلغ من مساهماتهم وكان النصيب الأكبر على عبدالله ومحمد الأمين ولم يعفوا الشيخ سعد بوه فأخذوا نصيباً من ما كان يدخره وقام أحمد على عملية الشراء والإعداد أما الشيخ فقد انتظر حتى أصبحت البقالة جاهزة فدخلها.

قالت خديجة:

ـ هل كلفك أحمد بالبحث عن البائع.

ـ نعم.. لقد قال لي إنه سيطلب تفريغاً اليوم وسيبحث عن بائع ولكن المشكلة هي أن أحمد لا يعرف أهل الميدان والأمانة في الباعة نادرة.

ـ أنا أعرف صاحب بقالة قريباً منا، وهو رجل صدوق يمكن أن يجد لنا بائعاً أميناً يريحك.

ـ قال الشيخ: اذهبي إليه الآن..

ـ هنالك أناس علاقتهم به وثيقة فسأنتظر حتى ينتهي دوامهم ويفرغون له.

ـ فهم الشيخ أن ابنته تعني زوجها فقال معلقاً:

ـ المهم أن أجد بائعاً صدوقاً أميناً وفي أسرع وقت.

ـ سوف أبذل جهدي في ذلك وما أحسب إلا أننا سنجده.

مكثت خديجة بعضاً من الوقت ثم رجعت إلى بيتها تاركة للشيخ الدهان واعدة إياه بأن تمسي عليه أو تغدو ببائع.

رغم جو الراحة الذي بعثه في نفس الشيخ وجود

الفتى عبدو ونشاطه المريح فقد آوى إلى فراشه تلك الليلة متعباً ولم يدر سبب تعبه وكان يتحسس بيمناه مواضع الألم في جنبيه وعند منتصف ظهره وتذكر ما ختمت به ابنته حديثها معه عندما وعدته أن تجد له بائعاً أميناً يريحه وتمتم: وهل سأستريح؟ البنت واهمة، هل يستريح من يجهل مهنته التي هو فيها. هل يستريح من يؤجر عاملاً لا يتأكد من أمانته ليترك إليه أمر تجارة قد لا يهمه ربحها، أنت تفكرين بقلب بنت تريد أن تريح أباها ولقد كتب عليّ أن أتعب منذ خرجت أمك من المنزل ولئن كنت أنت خففت عني التعب زمناً فإنه بعدك عاد بأشنع وأشد هذه المرة شقاء حقيقي كل شيء تغير وتبدل أكاد لا أعرف الوجوه كلهم يتبدلون أنت وحدك ما بقي من الحقيقة، وربما محمد الأمين أيضاً إن لم تكن الإمارات بدلته يقال إن وسائل الإزعاج هنالك أكثر، السيارات والأبواق والشوارع لا شك أن أهل ذلك البلد قد أصابهم ما أصاب أهل هذا الشارع. المدن هناك كلها شوارع، قال محمد الأمين إنه يبنون الشوارع يومياً ويجددونها باستمرار، في المرة الماضية عندما رجع في إجازته كان يبدو طبيعياً، لم يتغير شيء في سلوكه، عندما زارني في السوق مشي يسلم على زملائي ويبتسم لهم، ولشد ما أفرحهم ذلك وأثنوا عليه كانت صلته بهم وثيقة لأنه كان أكثر إخوته خلافة لي

في عملي، فيه شبه من أمه وأخته، لم يغيره جنون الحياة، وتواتر الأحداث لم يصبه ما أصاب الآخرين من شيطان الحركة والتعجل، أنتما وحدكما الحقيقة الباقية لي، كل الآخرين خلعوا أثوابهم وارتموا في الغمار يخوضونه، جرفهم السيل ومشى حتى استقر هنالك على حافة ذلك الشارع وأينع ذلك المحل ألم تري إلى من في المنزل أنت وأمك رماكما السيل بعيداً وأبدلني بكما هذه الفتاة المجنونة، يؤرقني جوارها. كان على أحمد أن يتخذ لنفسه زوجة غيرها فلا أجد مثل هذه الضجة، لقد جن هو الآخر أو كاد جرفه السيل لا يميز بين الأشياء ولا يعرف سبيله أما أنا فلو أسلمت نفسي لهذا العالم فلأكونن من المجانين ولأضلن الطريق وذلك عار على مثلي، أنت نفسك لن تقبليه مني ولن ترضيه لي وقد ينغص على أمك رقدتها ويقطع آخر صلة لنا بها، هم بحكم جنونهم وانطفاء النور في أعينهم لا يرون الحقيقة ويظنون أنهم على هداية تصوغهم طريقهم كما تشاء ويستسلمون للحركة من غير إنكار، يتقبلون الغثاء ويبحرون معه ويريدون لي أن أكون مثلهم أعمى البصيرة ترفعني الرياح إذا هبت ويقتلع السيل جذوري وما كان لي أن أكون كذلك سأظل غارساً جذوري في الأعماق ولن تستطيع الزوابع اقتلاعها.

وكانت الصور تتراجع في ذهنه وتنطفىء أجفان عينيه ويغوص في الأعماق ويمضي في نوم عميق مريح يمحو به أحزان يوم متعب.

مرت ثلاثة أيام والشيخ سعد بوه لا يجد بائعاً وقد نفذ صبره وأحس بالإحراج لأنه يستغل ابن أخيه لمصلحته معطلاً مصلحة الولد وأبيه ورغم ذلك فإن الابن وأباه لم يبديا أي استياء بل إن عبدو ظل يأتيه بانتظام ويعمل دون ملل وبكفاءة عالية بهرت الشيخ حتى فكر مرة في أن يكلم أخاه في شأن عمل الفتى معه بأجر مضاعف ويبحث الأب عن بائع يعينه خصوصاً وأن حانوته ليس بحجم هذه البقالة ولكنه تراجع عن الفكرة ورأى فيها تملقاً قد يسيء إلى مستقبل تجارة أخيه ويسيء كذلك إلى علاقة الاحترام بينهما، وعندما يئس الشيخ من أن يجد بائعاً ورجح أن خديجة إنما كذبت عليه قال لعبدو:

- اذهب إلى أبيك فهو في حاجة إلى مساعدتك.

- أنت لم تجد بعد من يعينك في العمل ولا يمكنني أن أتركك وحدك.

- ليس هذا مهماً سأجده قريباً وأنا الآن في وضع جيد، وقد تعلمت أشياء كثيرة، اذهب فلا أريد

لتجارتكما أن تخسر وهي أهم عندي مما بين يدي.

ـ لقد أمرني والدي أن لا أفارقك حتى تجد بائعاً.

أكبر في أخيه تلك التضحية والشهامة ولم يكن يتوقع منه غيرها فهو لم يكن يوماً إلا ودوداً حسن الخلق رغم أنه في بداية حياته كان طائشاً مبدداً لما يصل يده من نقود إلا أن ذلك الطيش لم يلحق أخلاقه فهي حسنة دائماً ولقد أظهر رشداً ناما بعد أن كبر وتزوج.

في المساء قبيل الغروب كانت فرحة الشيخ سعد بوه كبيرة عندما توقفت أمام البقالة سيارة مولاي ونزلت منها خديجة يتبعها شاب في حدود الخامسة والعشرين واستقبلهما الشيخ ببشاشة وابتسام لم يكد يظهرهما حتى سحبهما من قسمات وجهه عندما وطئت قدم مولاي عتبة المحل فاستقبله الشيخ بوجه خال من العلامات ونظرة جانبية قاصرة وكذلك فعل مولاي وهو يسلم عليه فكان كل منهما يداري أن ينظر في عين الآخر منعهما من ذلك حياء المصاهرة رغم أن علامات الود بادية بينهما والمقربون منهما يعلمون ذلك جيداً مرت لحظات من الوجوم تخللتها عبارات السلام والسؤال عن الأحوال وتلا ذلك انسحاب مولاي تاركاً للشيخ حرية الحديث مع ابنته ومع البائع الجديد وبعد الاتفاق ودعت خديجة

أباها وبقي البائع معه ليبدأ العمل صحبه عبدو الذي سيدله على مواقع البضائع وأسعارها قبل أن يعود إلى أبيه.

صخب الشارع

كان اكتشاف البائع لخلو المحل من السجائر مبعث حسرة له جلعه يتشاءم أول وهلة ناظراً إلى ذلك على أنه يقلل الزبناء ويحد من حركة البيع وزاده حسرة أنه هو نفسه يدخن السجائر ولم يكن ممكناً أن يخرج في كل مرة ليشتريها من الحوانيت المجاورة إلا أنه قبل العمل مبدئياً، فهو على كل حال لن يخسر أي شيء فراتبه مضمون وقد عمل في أيامه الأولى بانضباط وجديه جعلت الشيخ يطمئن إليه ولكن هذا الاطمئنان لم يكد يظهر حتى حدث ما يذهبه فقد اكتشف الشيخ أن بعض الفتيات يترددن على الحانوت في غيابه وارتاب في علاقات الشاب مع هؤلاء الفتيات اللواتي صادفهن مرات داخل المحل يتضاحكن أو يجلسن على الفراش فكان في الأول يحثه على أن لا يقبل تجمعهن في المحل ويعلل ذلك بأن أكثر فتيات هذا الزمان فاسدات وربما لا يأتين إلا ليجدن ما يسرقنه وكان يقصد بذلك

الحث أن يوهمه أنه لا يتهمه بمحاباتهن والميل إليهن ولكن الأمر تكرر ولم يستطع الشيخ أن يتمالك نفسه فحذر الفتى وأمره أن يمنع الفتيات من دخول المحل ولامه على تهاونه معهن، ضاق صدره لهذا الأمر وفكر في أنه قد يكون أشنع في الليل حيث يخلو الجو لهذا الشاب وصديقاته وكان الشيخ يرتاح بالليل وظلت الفكرة تراوده وفي الحلم رآهن يضحكن ويرقصن والبائع يناولهن ما يطلبن ويدخن بشراهة، ويخرج الدخان من مناخيرهن ويتسللن إلى مخزن النقود وتمتد أيديهن إلى الدرج أولاً فيفرغنه في أكمام ثيابهن ويفتحن الصندوق الأرضي فينبهرن ويتضاحكن ويهلن ما به في أكمامهن ثم يقبلن على الشاب الواقف بدون حراك فيقبلنه ويحملنه بين أيديهن ويرقصن، ويداهم المحل من الباب الخلفي سيل يجرفهم إلى الخارج تسوقهم طاولة البيع، ينزلق ذلك الغثاء مع الشارع وتمتد أيديهم إلى الطاولة فيرتقونها وتخوض بهم غمار السيل والفتيات ما زلن يضحكن والبائع واجم بينهن لا يبدي حراكاً كأنما خدرت أعضاؤه وتقدم كومة الغثاء مع الشارع والطاولة تطفو فوق الماء إلى أن يغيبها الأفق، بعد ذلك يدخل هو المحل فيجده قاعاً صفصفاً، جرف السيل كل شيء، ويخرج إلى منتصف الشارع وقد انحسرت المياه وهدأت الحركة فينظرهم في الأفق البعيد ويخيل إليه أنه رآهم

يتدحرجون على ذرى الأمواج العاتية، عندها يعلق غير مبال:

- ستجدون الهوة أمامكم وستسقطون في القاع جثثاً هامدة.

ويحول نظراته إلى البقالة الخاوية ويحرك المفاتيح في يده.. ليس هنالك شيء تخشى سرقته.. يتركها مفتحة الأبواب ويغادر المكان راجعاً أدراجه.

أزعجته الرؤيا لئن سارت الأمور على هذه الوتيرة فسيخربن البقالة ويهدمنها، لا بد أن يوقف هذه المهزلة ولكن كيف سيوقفها، ليس لديه دليل على إهمال البائع أو خيانته، سينتظر حتى يجري حساباته المالية. سيمر وقت طويل قبل ذلك، لا يوجد حل غير هذا، لم ينس متاعب الأيام الأولى وهو لا يتمنى العودة إليها لن يتعجل الأمر عسى أن تكون هذه أوهام لا حقيقة من ورائها.

فضل الشيخ منذ البداية أن يتولى عملية الشراء واستيراد المواد والبضائع اللازمة من السوق ولم يكن مستعداً وهو يذكر متاعب اليوم الأول أن يجلس على ذلك الكرسي طيلة النهار يتلقى حماقة الزبناء ومتاعبهم فكان لا يجلس عليه إلا نادراً ولوقت محدود جداً في

أوقات القيلولة عندما يخدع البائع ساعة للراحة، أو في أوقات متفرقة قد يخرج فيها لبعض شأنه فيخلفه هو ولم تكن مهمته التي يتولى سهلة ذلك أن أغلب المواد التي يشتريها نادرة وسوقها غير مستقر، ولا يخضع السعر فيها لأية رقابة، كما أن أهل هذا السوق خبيرون في فنون المزايدة وطرق الربح الأعمى ولا تأخذهم الرحمة بعديمي الخبرة من أمثال الشيخ سعد بوه ولهذا لجأ الشيخ إلى أصحاب البقالة القريبة منه ليستعين بهم في دخول الميدان ويعرف منهم الحدود المعقولة لأسعار الشراء ولم يسلم من عثرات وضربات صائبة أحياناً، كأن يشتري بضائع رخيصة بأثمان باهظة، أو أن يشتري بضائع كاسدة، وقد زادت تلك الضربات من الخلاف بينه وبين البائع الذي كان يلومه على طريقته في الشراء ويشتكي من ارتفاع أسعار بعض المواد مما يصرف الزبناء عن شرائها وهم يجدونها بأثمان أرخص عند البقالات المجاورة غير أن هذه المتاعب وإن كانت مؤلمة للشيخ وتبعث في نفسه التشاؤم والحسرة إلا أنه لم يكن على استعداد للتبادل مع البائع، أو ترك عملية الشراء بيده، هيهات أن يفعل ذلك وهو لم يتوقف عن بيع الفحم إلا ليعمل عملاً أخف منه ولكن يبدو أن الجريان وراء البضائع وتسقط أخبارها عمل شاق ويحتاج إلى حركة واسعة وسريعة.

تعوّد الشيخ سعد بوه أن يذهب إلى السوق التجارية الكبيرة ضحى بعد جلسة الشاي الصباحية ولا يعود إلا زوالاً وكانت الشمس في تلك الأيام حارقة وكان يرجع وقد ألجمه العرق من كثرة التجول في السوق بحثاً عن البضائع، وذات مرة عاد إلى البقالة وقد استقل سيارة أجرة يحمل فيها البضاعة التي اشتراها، وما إن توقفت السيارة أمام المحل حتى رأى داخله فتاتين إحداهما ترقص متمايلة ذات اليمين وذات الشمال وكانت الفتاتان تقفان أمام طاولة البيع موقف الزبناء، قبالة البائع توقفت الفتاة عن الحركة عند سماع صوت المكبح، ونظرت الفتاتان جهة السيارة التي غيبها الجدار بين البابين وانتظرتا حتى دخل الشيخ سعد بوه، وكان البائع مشغولاً بتنضيد مواد بعض الرفوف، نظر الشيخ إلى الفتاتين وهو يقول:

تريدان أن تجعلا من محلنا مرقصاً أيتها الفاسقتان المجرمتان وتقدم من المسجل فسحب موصل الكهرباء وضغط على الأزرار ضغط من لا يميز بينها حتى انفتح مثبت الشريط فاستل الشريط وهشمه ثم ارتد إلى الفتاتين فإذا هما خرجتا وكانتا ابتعدتا فرمي الشريط في أثرهما وهو يلعن هذا العالم القذر الفاسق.. وهذا الصنف من الفتيات، المارق الوقح.. ثم ارتد إلى البائع يلومه على

تشغيله للشريط وقبوله بدخول مثل هاتين الفتاتين، وعاد إلى السيارة. وانهمك في البضاعة التي جاء بها ينقلها مع السائق داخل المحل، كل ذلك البائع واقف لا يتحرك، ولما أبطأ في مد العون لهما رماه الشيخ بنظرة لائمة وقال:

- ألا تساعدنا؟

- كلا، لن أساعدكما لقد سئمت إهانتك ولولا أنك رجل كبير في سن والدي لكان لي معك شأن آخر، هيا أنقدني أجري فإني خارج من هنا الآن.

فوجىء الشيخ سعد بوه، ولم يدر كيف يرد ومرت لحظة وجوم، كان يريد أن يضبط نفسه فهو لا يريد خصاماً ولا خلافاً ولذلك جاء رده مسالماً هادئاً:

- أنا لم أقصد إهانتك إنما أردت زجر هاتين الفتاتين ومثيلاتهما عن مثل هذه الوقفة والتجمع في المحل.

- ألم تهشم شريطي؟ ألم تقطع أسلاك مسجلي؟ ألم تتهمني في مرات بمحاباة الفتيات وإعطائهن ما يردن أليس كل هذا إهانات؟..

سأعوضك عن خسارتك، أما تجمع الفتيات فلم أتهمك به وإنما طلبت منك ألا تتركهن يتجمعن عندك.

- أعطني حقي إني ذاهب وهذا أريح لي ولك.

بدا البائع متضايقاً كثيراً من أفعال الشيخ سعد بوه السابقة وأوامره الصارمة التي تجعل من لا يعرفونه يحسبونها علامة للتسلط والحق أن الشيخ سعد بوه طبع على الصرامة الشديدة في كل أمر يراه ضرورياً، كما أنه لا يتهاون في ما يراه فاسداً وهو مع ذلك هين لين في كل ما يخرج عن ذلك وتذهب به الليونة إلى حد يصل أن الطفل ليقوده إلى حيث يريد، ولقد كان اكتشاف مريم الكبير أن فهمت طبعه ذلك وسارت عليه فكانت تتجنب ما يغضبه وتحرص على أن تأتي من الأمر ما يرضيه فاكتسبت ثقته إلى حد جعله يسلمها زمام نفسه فكانت ترى له الرأي فيوافقها عليه ويأخذ به ولهذا السبب انزعج الفتى كثيراً عندما رأى منه تلك الحدة في مواجهة تجمهر الفتيات بالمحل وفي تحريم المسجلات والأغاني وفي تعنيفه له على التساهل مع الفتيات واعتبر ذلك حجراً على حريته واتهاماً له وعدم ثقة به وكانت تلك الأسباب كافية لطلبة حقه وامتناعه عن البقاء ولو للحظة في المحل.

بدا الشيخ مشتتاً فهو من جهة لا يريد أن يظهر بمظهر المخطىء فسيتعطف البائع للبقاء خصوصاً وأنه لم يتأكد من أمانته ولم تزده الأحداث إلا ارتياباً فيه، وهو

من جهة ثانية غير قادر على تسيير المحل وحده، بل لم يعد يميل إلى أن يقعد مقعد البائع، وكان ينتظر أن يستتب أمر المحل فيستجلب له بائعاً ثانياً يحرره من قضايا البيع ولهذا فقد عز عليه إصرار البائع على الذهاب وكاد ينفجر غضباً، ولكنه امتلك نفسه وسكت وهو يوفيه حسابه.

وأخيراً وجد الشيخ سعد بوه نفسه وحيداً في المحل، نفس الجلسة الكئيبة التي بدأ بها عندما تركه البائع الأول وذهب، تشاءم بتلك الجلسة وكان الوقت حاراً وضوء الشمس متعامداً على البلاط أمام عتبة الباب يجلب لعينيه ألماً وحرارة رغم المروحة الدائرة في سقف المحل، واتجه النهار إلى القيلولة والسكون وخفت حركة السيارات وهدير ماكينات الطحين وسكنت حركة الأرجل، وعلى الجهة المقابلة كان هنالك صوت مزعج يكبر ويعلو كأنما تنهزم أمامه الأصوات الأخرى ويحتل وحده المكان، وكان غليان صدر الشيخ يشتد حتى يضيق عن هوائه فيكاد ينفجر، كان ذلك الصوت صوت أبواق دكان الأشرطة المقابل لبقالة الشيخ، ولم يستطع أن يصبر على هذا الإزعاج، وقد سبقت بينه وبين الفتى الذي في الدكان جفوة وخلاف فقد نهاه مرات ولكنه اليوم وجد نفسه منزعجاً انزعاجاً كبيراً

ويعاني آلاماً في الرأس سببتها حرارة الشمس وزادها الغضب من البائع عند خروجه ولم يكن يقوى على تحمل تلك الضغوط كلها في مثل ذلك اليوم، فما كان منه إلا أن خرج من محله مسرعاً متلوياً في هجير الشارع الأسود تغطي عينيه غلالة غضب ويحتقن الدم في وجهه ويكاد يفيض فتتحول بشرة وجهه إلى السواد الداكن، نادى الفتى وهو يدلف داخل الدكان وكان الفتى معكوف القامة قد أدخل رأسه تحت طاولة البيع يفتش عن شيء ما ولما رفع رأسه رأى الشيخ يقبل عليه والشرر يتطاير من عينيه وهو يقول بحدة يشوبها استرحام:

ـ يا بني ألا ترحمنا.. هلا أسكت هذه الأصوات المزعجة أو خفضتها حتى يتعدى وقت القيلولة.

كان طبع الفتى هجومياً عدوانياً، وقد اختلف مع الشيخ سعد بوه للوهلة الأولى فلم يكن بعدها يرتاح لرؤيته وعندما سمع كلام الشيخ رد عليه:

ـ كل الناس يرتاحون لوجودي هنا إلا أنت، ماذا بيني وبينك هل ظلمتك؟ أنا لم أدخل محلك أبداً فلم لا تتركني وشأني.

ـ أنا لا أستطيع أن أصبر على هذا الضجيج، إن

دماغي يكاد ينفجر من شدة الألم وحدة الأصوات ولكني لا أطالبك إلا بالتوقف فترة الزوال فقط.

- قال الفتى بصرامة:

- اسمعني جيداً، لن أسكت صوت البوق، وسوف أبحث عن آخر ولتفعل ما تستطيع فعله، لقد صبرت عليك كثيراً وتغاضيت، ولكنك شيخ مجنون ولن ترتدع إلا بطريقة المجانين، هيا أرني ماذا ستفعل.

قال الشيخ:

- الأحسن أن تسكت عني صوت بوقك.

- بل الأحسن أن لا أفعل ذلك ولن أفعله وإني لا أخافك أيها الشيخ الهرم المجنون.

كاد الفتى يبصق في وجه الشيخ وهو يلقي إليه بكلمته الأخيرة، وغشت ظلمة الغضب عيني الشيخ ولم يدر إلا وهو يهجم على الفتى وقد تملكه غضب شديد وهياج، ورفع يده وهوى بها كالصاعقة على خد الفتى الذي ترنح ساقطاً إلى الخلف واصطدم برفوف الأشرطة فتداعى بعضها على رأسه، وكانت الصدمة قوية أذهلت الشيخ، ولكن الفتى لم تطل سقطته فقد تحامل على نفسه وهب واقفاً يزعق ويصرخ ويلعن الشيخ سعد بوه هرع إليهما بعض المارة وأصحاب الدكاكين

المجاورة وأخذ الشيخ يلوذ بالطاولة من رمية أراد الفتى أن يصيبه بها وكان يحمل في يده قطعة حديدية كبيرة، وأخيراً رماه فمرت من فوق منكبه ولمسته لمسة خفيفة غير متمكنة وكانت الطاولة قصيرة وجد الشيخ سهولة في القفز من فوقها والقبض على يدي الفتى الذي حاول عبثاً أن يتخلص من قبضته وكان الشيخ يجهز عليه حتى لا يرميه مرة أخرى وجاءه الناس ففرقوا بينهما وأمسكوا الفتى وكانت قطرات دم تسيل من مؤخرة رأسه فقد أدمته الصدمة ولم يكن تنبه إلى ذلك وهو ما يزال يصارع ليجد خلاصاً أو طريقاً يرمي بها الشيخ.

وفي معمعان المعركة تذكر الشيخ محله فهرع إليه يغلق أبوابه ويجلس في واحد منها تركه مفتوحاً، وظل يراقب تحركات الفتى وينتظر ما يفعله، ونجح الفتى في الإفلات من رجل كان يمسك به وأطلق رمية سريعة في اتجاه الشيخ كادت تكسر الزجاج الأمامي لسيارة كانت تمر في تلك اللحظة لولا أن علتها قليلاً، وماتت الرمية دون الشيخ، ولحق بعض الرجال بالفتى فأمسكوه وتحول الشجار إلى مهرجان على حافة الشارع ووقف الشيخ يراقب الوضع وجاءه بعض الرجال يسألونه عن أسباب الشجار، فحدثهم وعيناه مثبتتان على الفتى الذي كان يسير يميناً وشمالاً يمنعه الناس عن أن يتقدم إلى

الشيخ، فلم يكن يجد إلا أن يرمي حجراً أو زجاجة طائشة وكانت الرمية تموت دائماً قبل بلوغها هدفها وتصادف أن مر بموقع الحادثة شرطي فاستنجد به الناس، فدعا بسيارة ولما جيء بها أخذ الفتى والشيخ سعد بوه إلى المفوضة.

لم يأخذ الشجار أبعاد خطيرة فقد استدعى المفتش الذي سلم إليه الشيخ والفتى للتحقيق معهما. أحمد وكان صديقاً له ويعرف الشيخ جيداً وسعى أحمد في استرضاء أهل الفتى ومصالحتهم وأخلي له سبيل أبيه وكان أحمد حريصاً على أن لا يعلم عبدالله وخديجة بهذا الأمر، وأن ينتهي كل شيء في أسرع وقت ولم يزعجه إلا تعاليق الزهرة التي صحبته عند ذهابه وعودته.

دخل الشيخ غرفته ليستريح من عناء هذا اليوم الطويل ولينسى ما مر عليه فيه من مصائب، وكان الوقت عصراً.

قالت الزهرة لأحمد عندما خلا لهما المكان:

ـ لقد جن أبوك فابحث له عن طبيب يعالجه.

ـ لست أدري ما أصابه لقد تغير كثيراً منذ أن بدأ العمل في البقالة، لقد كان قليل الغضب قبل هذا، حتى نحن أبناؤه نادراً ما كان يغضب علينا، ولم أسمع أنه

شاجر أحداً وهو في عمله أو خارجه، أما الآن فهو في خلافات وغاضب مستمر، طرد البائع الأول وها هو اليوم يختلف مع البائع الثاني والكارثة الكبرى هذا الفتى بائع الأشرطة ليس هذا أبي الذي عرفته.

- هذه فضيحة، يجب أن توقف أباك عند حده، وإلا ساءت سمعتنا بين الناس.

- ماذا أفعل له!

- مره أن يترك العمل ويجلس في البيت.

سكت أحمد، كم هي متهورة هذه المرأة وكيف أستطيع أن آمره، وهو لا يقيم وزناً لأوامري، أنا ما زلت صبياً في نظره، لقد عشت إلى اليوم وأنا أهابه، أصاب بالوجل كلما أرسل إلى نظراته الحادة، لم يكن يضربني ولكني جبلت على تلك الرهبة وكذلك إخوتي عبدالله هو الآخر كان كذلك كيف نستطيع أن نجعله يترك العمل إنك تذهبين بعيداً.

- ومتى كان يأتمر بأمري أو بأمر أحد من إخوتي.

- هو أبوكم، وقد أصابه الخرف ومع ذلك تعجزون عن منعه من العمل، أمرٌ غير مستساغ.

- أبي لم يصبه الخرف، لقد أغضبه الفتى فضربه وهو بعد ليس شريراً وفي تمام عقله.

- وهذه الفضيحة؟! إني لا أطيق أن يسمع الناس أن عندنا شيخاً مجنوناً نظل نلهث خلفه في أورقه المفوضيات.

أغضبه إلحاحها على أن الأمر فضيحة وعلى أن أباه مجنون ولم يعد يتحمل فقال لها:

- أنت وقحة يهون عليك رمي أبي بالجنون وتطلبين مني أن أفرض عليه أمراً لا يطيقه ولو كنت قادراً على ذلك لما فعلته هذا أبي وعليك أن تعرفي له هيبته واحترامه.

- لأني نصحتك في أبيك تتهمني بالوقاحة، وتسبني على حين أردت أن أجنبك وأجنب نفسي فضائح الجرجرة في مخافر الشرطة، وسوء السمعة.

- كفى.. أنا أعرف أنك تكرهين أبي، لقد رأيت ذلك فيك منذ أردنا منه أن يترك بيع الفحم.

- أنا لا أكرهه، ولكن أخشى أن يجلب لنا ولنفسه العار.

- إنما تحسبينه عاراً كسب حلال أغنى عائلة كبيرة بمال لم تشبه من حرام، ولم يجمع من ممتلكات عمومية، ولا من تغريم البشر وابتزازهم، وحتى ولو كان فيه عار فماذا يضرك أنت من ذلك.

ـ الممتلكات العمومية وتغريم الناس أو تعرض بأبي وتتهمه وهو ولي نعمتك، سوف ترى، ستندم على ما قلته أيها الجاحد الغادر.

رفع يده وصفعها فتراجعت صارخة، في تلك اللحظة كان يدخل المنزل رجال من أقارب أحمد فتوقف وأسدل ذراعه واستقبل القادمين.

لم تنفع مراودة الرجال في ثني الزهرة عن عزمها أو في التخفيف من ثورة غضبها وجمعت ثيابها وأخذت بيد ابنها وخرجت ولم يأبه أحمد لتصرفها ولا هو حاول أن يمنعها وبدلاً من ذلك صاحب الرجال إلى غرفة أبيه وجلس معهم.

كان الشيخ واجماً طول الوقت، ولم يكن مستعداً للحديث وهو في دخيلته يتألم عندما يسأله أحد عما حصل له مع الفتى بائع الأشرطة ولكن لا بد من الصبر، لو كانت له قدرة على التحكم في أدمغة البشر أو على كتم ألسنتهم إذن لمحا ذلك من أدمغتهم وختم على ألسنتهم فلا ينطقون به لكن إن عليه أن ينتظر حتى يذهب الزوار ويأوي أهل الدار إلى مخادعهم حينما قد يستريح. سينام ويخرج من هذه الدوامة.

أخيراً وجد نفسه وحيداً في حجرته، يكبله الظلام

والحجرة يزداد اتساعها وتتباعد جدرانها وتنعدم في سواد حالك، الظلام غول يفغر فاه ويبتلع الكون، وهو سحيقة تنجذب إليها الأشياء دوائر سود، معالم الكون تتبدد وتتحول امتداداً من السواد، لو كانت الظلمة سرمدية لقبع في مخدعه لا يراه أحد ولا يرى أحداً مزعجة ومؤلمة هذه الكائنات البشرية صراخ الفتى ما يزال ينبعث من تحت طاولة البيع يقض مضجعه، ها هو يحمل حجراً غليظاً ويتعثر به متجهاً إليك.

تنح حتى لا يشج رأسك لقد سقط فلا تأبه له، لن يستطيع أن يرميك أصابته ضربتك في مقتل.

تحسس الشيخ سعد بوه يده في الظلام فقدر إنها صلبة قوية ما يزال يحتفظ بالكثير من قوته، لم فعلت ذلك، مسكين هذا الفتى، ستتألم الآن لأنك أوجعته ولكن لماذا غضبت عليه، لأنه قال كلاماً وقحاً وتحرش بك، كان عليك أن تحلم عنه وتصبر على أذاه حتى تلقي أهله، ستتعلل بظنك أن ليس له أهل وبأن أمثاله من الناس لا تردهم إلا العصا.. ليست هذه أبداً مبررات يتعدى بها رجلٌ كبير على فتى طائش، ألم يؤلمك موقفك في أروقة المفوضية ألم تذل نفسك وتذهب كرامتك حين جعلت نفسك نداً لهذا الفتى النزق تتقاضى معه عند المحققين وتسمع شتائمه عن قرب،

فلتواصل مثل تلك الأفعال وعليك بسرعة الانفعال وطول اليد، وانس إلى الأبد احترامك وهيبتك، ثلاث غضبات متوالية في يوم واحد، التاجر يمتنع أن يبيعك والبائع يتركك وحدك والفتى يدوس كرامتك ويسحبك في مكاتب الشرطة.. هذه مذلة ومهانة، قبح الله الغضب، الشيطان عشش في ذلك المكان، وسكن الشارع فلم يعد لك صبر على الإقامة هنالك، تتقبض نفسك كلما باشرت سواد الشارع ويدور الشريط المزعج في أذنيك، تهشم دماغك أرحية ماكينات الطحن وتخرق أذنيك منبهات السيارات فأنى لك الهدوء والسكينة صور الآدميين متدافعة أمام عينيك في تهافت سرمدي تعب من عين الحركة والتبدل وتترتوي بمس الجنون وها هم يمدون إليك حبالهم يعقدون بها قرنيك ثم يسحبونك بها كالثور يقرب للإخصاء، تلفت عن يمينك ويسارك فلن تجد إلا الهباء سيتلاشى الجميع دخاناً أزرق منتناً وستبقى أنت منجذباً بتلك الحبال مطأطأ الرأس مغمض العينين من الألم والإعياء تتبع اتجاه الشد في حركة ليس لها نهاية.

تستطيع أن تعد على رؤوس أصابعك لحظات الغضب الشديد التي انتابتك منذ دنوت من الشاب إلى أن جئت إلى هنا، إلى هذا الشارع الملعون، أما ما بعد

ذلك فإنك لا تستطيع أن تعده، جرب ستنسى كثيراً لو فعلت قد تكون للشد نهاية، ولكن سيحكم عليك أنت الآخر بالتلاشي، تصير هباء ودخاناً وفي المحاكمة ستتبرأ مريم منك، ستقول إنها لا تعرفك لن ينفعك الاستنجاد بمحمد الأمين أو خديجة، طفلان صغيران لا يفهمان شيئاً يتشبثان بثوب أمهما كالنخلة الفارغة، جسد أبيض نقي تعلوه نضارة الشاب لألأت شمس الضحى عليه حبات عرق لماعة، من هنا تفوح رائحة الجنة، أضنى جسدك قوة الشد وطول المسير، أنت ظمآن فاشرب من معينها مد يدك ولكنك مكبل بالحديد ارتشف رحيقها. شفتاك مكممتان ها هي تحركت ذاهبة غير مبالية بك، الحق بها اركض وراءها إنك راسف في سلاسل الحديد.

- مريم لا تتركيني، لا تتبرئي مني، أنا الشيخ سعد بوه أنا زوجك وحبيبك، اسألي خديجة ومحمد الأمين ستنظر إليك من جانب عينيها وستقول دون تردد وهي مواصلة سيرها:

- وإذا كان ما تقوله حقاً فخلص نفسك واتبعني.

- لا تتركيني.. إني أحبك.

- أبعد أن خلعت ثيابك ورميت بنفسك في الغمرة ونسيتني.

- لم أخلعها ولم أنسك.

- إذا فلماذا الغضب والإقذاع؟ لماذا مسابة الناس والسرعة إلى إيذائهم أو تريد بذلك رضاي وتخطب ودي أمر لم أظاهرك عليه حياتي وأنت تعرف أني لن أظاهرك عليه بعد مماتي، ثم هل نسيت أني أنذرتك أن تتعب نفسك أو أن تكلفها ما لا تطيق؟ لماذا هذه المغالاة وحب العمل والحرص على تحصيل المال؟ لعلك ستحدث بعدي أمراً ماذا يغضبك من فتيات الشارع والحوانيت؟ هو نوع من الغزل إذن؟ لن أنتظرك هذا فراق بيني وبينك.

- كلا لا تغادريني، انتظري حتى تأخذيني معك، سأقلع عن عملي هذا وأهجر الشارع ولن أغضب بعد اليوم، وسأرتاح أما الفتيات فمعاذ الله أن أكون من الجاهلين فتميل نفسي للصبوة بعد الشيب وأغدر بك وأنت تعلمين أن نفسي لا تميل لذلك الجانب منذ لقيتك لقد أمحى حتى الإحساس بهذا إلا منك.

- سأعطيك فرصة.. وأنظر ماذا تفعل.

- أعاهدك أن أخلع هذه الثياب الجديدة وأن أعود

إلى نفسي من جديد، أعاهدك أن أجافي الجنون وأقطع الصلة مع الهوس والتهافت، أعاهدك أن أتشبث بالركن وأجدد العهد، سأسقي الجذور لتورق الأغصان من جديد ولو راودني عنها فلن أتركها ما حييت.

كان تفكيره يطارد خيالها المتلألأ في الظلام والذي بدأ يبتعد ويضمحل مفرغاً ذاكرة الشيخ من كل الصور ليغوص في نوم عميق، يسمع منه شخير عال كأنما ينفث به متاعب يومه ذاك ويفرغ شحن الألم والحزن الذي تركه فيه ليغدو وقد نقه من شوائب تلك الفترة وغسل نفسه من أدرانها متهيئاً للمرحلة الجديدة فيسهل عليه بذلك تنفيذ عزمه.

غدا الشيخ وقد اطمأنت نفسه بالقرار الجديد، ولم يذهب إلى البقالة.. عزم أن يطبق قراره فوراً أن يتخلص إلى الأبد من عري ذلك الشارع وصخب أصواته، تكاد الآثام من حوله تخسف بالأرض، وتنكسر نفسه بحرارة انسياق الناس هنا وراء وهج زائف تتلألأ مصابيحه من بعيد ويتبعونها فإذا هي تتحرك وسوف تظل على هذه الحال حتى يتساقطون فرداً فرداً لئن لم يتسن له إيقاف القافلة وإراحة الربان فالأسلم أن ينجو بنفسه، المغامرة حلوة ولكن الشمس في عينيه قد مالت للغروب وعما قليل تلوح له بوادر الليل، فليس الوقت مناسباً

وما له إلا أن يؤثر السلامة ويرتاح بقية يومه يعرف أنهم سيغضبون وسوف يحتج عبدالله وقد يقاطعه إلى الأبد بيد أنه متأكد أنه قد بلغ العذر لقد صبر كثيراً ولم يعد له جلد سينسلخون منه ويتركونه وحيداً سيبقى الجذع واقفاً وتهاجر الأغصان، لماذا ينبت الجذع أغصاناً وهي تهجره، لو كانت مريم حية لما تجرأ أبناءه على مخالفته ولما أغروه بقبول ما رضيت به نفوسهم، لقد كانت قادرة على إقناعهم قبل أن يصلوا إليه، فيندر أن يواجه أحدهم بأمر ليناقشه فيه، كان يكفي أن يعطيها راية النهائي وهي تتصرف معهم بما يثبت رأيه.

الربان يقود السفينة حتى يتعب فيتراجع مسلماً القيادة لغيره ولن يقلبوا رأيه من بعد، وسوف تثور ثائرتهم إن هو رجع إلى عهده الأول وخالف ما يرون، ولكن ذلك لا يهمه لقد أدى ما عليه ومن حقه أن يصرف بقية عمره كما يشاء، وإلا يؤيدوه في ذلك فلن يضره شيئاً وإن صاروا من ذلك إلى جفوة فما عليه منها، إن له ما يغنيه عنهم، وهم المتضررون إن هم عقوه وجفوه، ثم إن خديجة ستناصره لا محالة وإذا علم محمد الأمين فلن يمانع هو أما أحمد فعسى أن يكون هذا الخلاف رأس طلاق لزوجته كي يرتاح منها ويريحنا من تشنيع بيع الفحم وإظهار كراهيته له فهي

التي تدفعه لذلك، أما عبدالله فقد استبدله منذ زمن بعيد بأبنائه وأمهم ولا يسمع رأياً له وليكن وزيراً أو رئيساً أو ما يحلو له، لن يضيع حياتي لخدمة أغراضه الفاسدة وطموحاته التافهة.

دخل أحمد على أبيه وهو يستعد للخروج فسلم واقفاً وقال:

- سأتصل بأهل الفتى وسوف ينتهي كل شيء إن شاء الله قبل الثانية عشرة إن أردت أن تستأنف عملك فيمكنك ذلك الآن.

- لن أستأنفه ولم أعد أطيقه، لقد كرهت تلك البقالة وذلك الشارع وناسه. ثم دفع إليه المفاتيح قائلاً:

- دونك مفاتيح المحل دبروا أمره من اليوم.

- لقد كنا نريد لك الراحة من زمن بعيد ولكنك رفضت مراراً.

- سأستريح الآن وأريحكم.

فوجيء أحمد بقرار أبيه الذي لم يكن يتوقعه ولم يكن كذلك مستعداً له فقد عهد أباه متحمساً للعمل مقبلاً عليه، أبى إلا أن يواصل العمل ورفض اقتراح الاستقالة الذي اقترحه أبناؤه عليه حين توقف عن العمل في السوق، واليوم ها هو يتخذ هذا القرار في وقت

صعب بعد أن استأنس أحمد باستقرار حال المحل الجديد وظن نجاح المشروع، لن يجد قيماً عليه مثل أبيه ولن يطمئن لغيره وسيكون الخيار الوحيد هو بيع المحل على أن أحمد وإن كان فاجأه قرار أبيه فرأى فيه نهاية البقالة إلا أنه سر به في جانب آخر إذ رأى فيه راحة لأبيه من المتاعب والعناء خصوصاً وأن حالته النفسية ساءت منذ أن بدأ عمله ذاك، فيمكن أن يعود إلى هدوءه الأول حين يتخلص من مشقة العمل.

أوهام سعد بوه

خرج أحمد من عند أبيه ولم يكن دار بذهنه شيء غير أن أباه سيجلس أخيراً تاركاً كل صنوف العمل ولكن الشيخ سعد بوه كان له عزم آخر فهيهات أن يرمي بنفسه في قعر بيت مكوماً كقطعة أثاث قديمة يأكله الفراغ وتقض مضجعه أصوات الزهرة، لو عادت أو أصوات امرأة أخرى قد لا تختلف عنها، ما الشيخ بالذي يفعل ذلك، لقد عاش في شغل مستمر وعمل دؤوب ولن يفتر عنه إلا أن ينزعه الموت منه ليس مستعداً لقبر نفسه قبل الأوان ولا لأن يعيش من فتات طعام امرأة غريبة ولسوف يعمل حتى النهاية إن عليه أن يعود إلى عمله الأول فهنالك راحته وهنالك الكسب الحلال البارد الحلو. هنالك القوم الذين يسعد بصحبتهم ولا يرفضون له طلباً هنالك تجارة أحبها وتعلق بها وخبرها في أزيد من ربع قرن وهو لا محالة مستريح إن عاد إليها هكذا فكر الشيخ سعد بوه وقرر ولم يشأ أن

يطلع أحمد على قراره كان يريد أن يترك الأمر سراً حتى ينفذه وهو يعرف أنه سيمر وقت قبل أن ينفذ ما عزم عليه ذلك لأنه لن يعود إلى عمله إلا بعد أن يتم بناء السوق الجديد ويبدأ العمل فيها فعليه أن ينتظر ما يقارب ثلاثة أشهر حتى تستكمل أعمال البناء والتسليم والتوزيع وكان يحق للشيخ أن يحصل على محل في السوق عند توزيعها لأنه من تجار السوق القديمة الذين شملهم الإحصاء عند الترحيل وقد طلب إليهم في هذه الأيام تقديم طلباتهم مصحوبة بالرسوم النقدية المخصصة لذلك وسوف يقدم الشيخ طلبه دون تردد ولكن سيفكر طويلاً في الكيفية التي سيقضي بها الأشهر التي تفصله عن العودة إلى عمله فسوف يصبر على مرارة الفراغ وكآبة الجلوس منفرداً سبيلاً إلى تحقيق مطمحه سوف يمتص الألم بقوة كبيرة، فعندما تكون سعادة الغد محققة يهون ألم الحاضر ولو كان جبالاً من الألم نوى أن يعلم خديجة بقراره وما عزم عليه فور زيارتها له فهو واثق من أنها سوف ترتاح لهذا القرار وتؤيده عليه خصوصاً إذا علمت بالأحزان والمتاعب التي سببها له عمله في الأيام الأخيرة ويريد من وراء إخبارها به أن يهيئها لتخفيف وقعه على ابنيه حين يعلمان به وعندما جاءته حمل إليها النبأ وسكت ينتظر تعليقها فقالت:

- ما هو رأي أحمد؟

- أخبرته فقط بقراري ترك المحل أما العودة إلى السوق فلا يهمني رأيه فيها.

- ألا ترى أنكم ستخسرون ما أنفقتموه من المال في البقالة إن تخليتم عنه للباعة.

- أشرت عليه أن يبيعها وأنا لم يعد يهمني المال ولا الربح المهم عندي هو أن أعمل مستريحاً.

- السوق لن يعود كما كان سيتغير ويتبدل وسوف تأتيه بضائع جديدة ولن يكون فيه مكان لبيع الفحم ألم تر ساحاته التي بدأوا يبلطونها ودكاكينه المبنية من الإسمنت المسلح وغداً سيضعون فيها نوافذ زجاجية وأبواباً من الحديد مطلية بألوان زاهية فأين مكان الفحم لن يقبلوا بوضعه على ذلك البلاط الجيري الجميل، قال الشيخ بامتعاض:

- أراك تبحثين عن عراقيل تسدين بها الطريق أمامي ألا تحبين لي أن أعود إلى تجارتي الأولى وأفعل ما يرضيني.

- أحب أن تفعل ما يرضيك، ولكني لا أحب أن تذهب إلى السوق الجديد لبيع الفحم.

قال بحدة وإلحاح: ولماذا؟

قالت وسحابة الحزن تغشي وجهها:

ـ لأنهم لن يقبلوا ذلك ولو قبلوه فسيتخذك الناس أضحوكة.

بدا الشيخ متذمراً من كلامها غير مستعد لسماع المزيد منه فهو لا يريد أن يقنع أو يقتنع، لقد قرر وليس مطلوباً منها إلا أن تتقبل قراره وترضى به وإلا تَكُنْ مثل أخويها الذين ينظران إلى عمله على أنه سبة وقد صرح لها بذلك.

ـ ها أنت تأخذين برأي إخوتك، لما تسفهون رأيي وتكرهون مهنتي التي أوصلتكم إلى ما أنتم عليه، أعرف أنكم تتمنون موتي وتريدون أن تستريحوا مني، أف عليكم أبناء هذا الزمان ما أعظم عقوقكم أهكذا تكون حصيلة شقائي أن ترموني جانباً وتحاولون سلب كل قواي ولكني أقوى منكم وسأظل إلى أن أموت ولن تضرني كراهيتكم لي أو جفاءكم أو تسمعين! أنا أقوى منكم.. من عبدالله ومن أحمد.. أقوى من كل شيء يريد أن يحول بيني وبين هدفي أو يقنعني بالعدول عن رأيي... لن أحكم على نفسي بالموت.. لن أستقيل وأنا لا أزال قوياً قادراً على العمل.. وماذا سأفعل هنا أقعي كالعجوز الذابلة.. أراقب الخادمة وهي تذهب وتجيء بين الحجرات وأصغي إلى بكاء الصبية

وخصومات النساء.. هل هذا هو أبوك الذي تريدينه أم أنك نسيت أنه لم تكن لي عطلة في الأسبوع أجلس فيها في البيت.. خسئتم جميعاً أيها الغاقون.. أنا غني عنكم وإن شئتم أن يعتب أحدكم علي فافعلوا.. وسأعيش مرتاحاً.. لقد فقدت مريم وبقيت صامداً قوياً رغم الألم. فكيف لفقدان بعدها أن يؤثر فيّ.. أيها الحمقى.

صدمت خديجة عندما أصابت أباها تلك الفورة المفاجئة من الغضب وأحست بالذنب حين سمعته يلومها ويلوم إخوتها على العقوق ونكران الجميل، لذلك هربت من أمامه ولجأت إلى الصالون تلوذ بركنه من نظرات أبيها وراحت في بكاء أليم حارق، بكاء عنيف لم تبكه من قبل ولا يوم ماتت أمها كأنما تريد أن تغسل به نفسها وإخوتها من الذنب الذي اقترفوه في حق أبيهم لقد قسوا عليه وحملوه ما لا يطيق وهي لم تعهد منه هذا الغضب الجنوني ولا سمعت منه مثل ذلك اللوم الذي أثار شفقتها وإحساسها بالذنب تصورت أباها شيخنا نخر جسمه الضعف وهم ينهشونه وهو يستنجد ولا يجد منجداً، لماذا هذه القسوة، لئن تمادى إخوتها في معارضته فسوف يجن، هذا الغضب والكلام الذي قاله كل ذلك غير معهود منه وسمعته يقول:

ـ اذهبي اتبعيهم واسمعي كلامهم وسترون جميعاً أن ذلك لن يضرني شيئاً.

لم يكن في المنزل غيرهما فالوقت ضحى وأحمد في عمله والزهرة لم ترجع منذ خرجت من البيت قالت لنفسها:

حقاً لن يضره ذلك شيئاً يستطيع أن يعود إلى السوق إذا أراد لأنه يمتلك المال اللازم لذلك وسوف نخسر نحن ود أبينا وقد يكون في ذلك عقوق له وقد تؤثر معارضتنا له على مشاعره فيتكاثر عليه مثل هذا الغضب الذي يخرجه عن طور عادته وماذا يمنعنا أن نقبل، لن يكلفنا ذلك شيئاً وود أبينا أغلى من كل شيء سأقول ذلك لأحمد وعبدالله.

هكذا فكرت خديجة والدموع تسيل من عينيها، ولما استقرت على ذلك الرأي واطمأنت به سرت عن نفسها وذهبت إلى أبيها تسترضيه وتستغفره فيما كان منها وسعت بعد ذلك إلى إقناع إخوتها بقبول قرار أبيهم وعدم التعرض له فيه. مرت الأشهر الباقية والشيخ سعد بوه ينتظر ويتهيأ للعودة إلى السوق وكلما اقترب الموعد اهتز بهجة باليوم الذي سيجلس فيه متربعاً على كرسي أو خنشة فارغة بين ربوات من الفحم وسط دكان نظيف ظليل يحجب عنه الشمس والرياح، ومما خفف

على الشيخ الفراغ في هذه الأشهر انتظاره لذلك اليوم السعيد وكذلك اختفاء الزهرة من البيت حيث ازدادت الأزمة سوءاً بينها وبين أحمد وطلبت ثمناً باهظاً لقاء رضاها وعودتها إلى البيت ورأى أحمد في ذلك ذريعة تجعله يماطل في استرضائها ومما يعمق به الأزمة يتسنى له أن يتخلص منها وقد تحمل كثيراً من حماقاتها في السنوات الثلاث التي قضاها معها وأصر على ذلك ولولا مكانة والدها وهيبته له لكان رمى بها في الشارع من أول يوم ولكن أراد أن يبقى عليها ليكسب ود أبيها فذاك ينفعه في الترقية ومما عجل بالنهاية تدخل أم الزهرة وسبها أحمد جهاراً عندما جاء إلى بيت أهل الزهرة فقد فجرت المرأة في سبه ولومه وانتهت هذه الأزمة بالطلاق وكان لذلك وقع مريح على الشيخ، ورغم أن ذهابها خلق لديه إحساساً بالوحدة في بعض الأوقات فقد كان سعد بوه الصغير يملأ عليه المكان وكان وجودها هي وعاملتها في المنزل يعطيه إحساساً بالأنس وقد وجد ذلك الإحساس بالوحدة في أيامه الأولى وخصوصاً في أول النهار حين كان يتخلف في البيت وحده، أما بقية اليوم فلم يكن البيت يخلو من زوار من أقاربه وأكثرهم من الشباب الذين يأوون لمنزله للعشاء والغداء والراحة وكان بينهم شباب عاطلون وعمال عزب جعلوا من منزل أهل الشيخ سعد بوه مركزهم ومنطلقهم فكان لا يخلو

من بعضهم من الزوال لآخر اليوم، وجعل الشيخ يتداوى عن ذلك الإحساس بالخروج من البيت لزيارة بعض رفاقه القدماء الذين رفضوا الانتقال إلى السوق الجديد الذي عينته لهم السلطات الإدارية عند بدء العمل في بناء السوق القديمة واتخذوا بدلاً من ذلك دكاكين وحوانيت في حيهم وتحولوا من تجارة الخضار وغيره من أنماط تجارة السوق إلى تجارة الحوانيت داخل الأحياء، كانوا ثلاثة في أماكن متفرقة من الحي، وكان الشيخ يزور واحداً منهم كل يوم وربما عدل عن لزيارة منزل أقاربه في المدينة وكان أكثر من يزورهم هم أهل بيت أخيه، فيتعهد أبناءه ويحمل لهم الفواكه والنقود وربما زاره هو في حانوته ثم إن الشيخ في الأيام الأخيرة لانتهاء العمل من بناء السوق فكان يزور السوق بانتظام ويعد العدة لافتتاح محله أو يسلم إليه، ومن أجل ذلك طلب من أحمد أن يصفي له نصيبه في البقالة واستطاع أن يحصل بعض المال اللازم قبيل التدشين وسعى إلى زبنائه من تجار الفحم الذين يوردونه من داخل البلاد، وعقد اتفاقات مبدئية ثم اتصل بالباعة البسطاء داخل حيه والأحياء المجاورة والذين كان هو يبيع لهم وتم التفاهم فعبر هؤلاء الباعة عن سعادتهم بعودته لأنهم كانوا من بعده نهباً لجشع الطامعين من سماسرة الفحم ولم يجدوا مركزاً يذهبون إليه في جميع

الأوقات ويوفر لهم المادة بصورة ملائمة وسعر ثابت كما كان هو يفعل.

أعلنت إدارة السوق عن انتهاء العمل وأنها تسلمت مفاتيحه من الشركة المشرفة على بنائه وحددت يوماً لتسليم المفاتيح إلى أهلها، طرب الشيخ إلى هذا الإعلان ورقص قلبه، سأعود إلى السوق من جديد سأستعيد مركزي، والآخرون سيعودون، ستأتلف الجماعة من جديد سيزورني أبنائي القدماء ويشترون الفحم وسيتقاطر على الباعة لأخذ حصصهم من حمولة الشاحنات التي سأوردها... آه ما أجمل ذلك.... إن التفكير في أمر العودة يغمره بالسعادة فقد تكونت في ذلك علاقات بين زمرة الباعة أنفسهم وبينهم وبين الزبناء، وكان سعد بوه في أغلب الأحيان مركز هذه العلاقات، الجميع هناك يحترموه يستدينون من عنده ويقترضون يسمعون نصائحه، يشربون شايه ويأكلون أطاجينه، كان ركناً من أركان السوق الذين تأسس عليهم وكان طبعه ميالاً إلى التودد للآخرين وبذلك أحبه الجميع وجعلوه قاضياً بينهم في ما ينشأ منازعات وحماقات سوقية فكان يقضي بالعدل وينتهي دوماً إلى التوفيق والمصالحة بين المتخاصمين، وكان مجرد الإحساس بأنه قادر على مساعدة الآخرين وبأن الآخرين

ينزلونه منزلة عليا، كان هذا الإحساس يشده إلى السوق ويجعله مسكوناً بهاجس العودة إليه هنالك الجذر والقيمة، حقيقته تتجلى هناك وشمس مملكته الصغيرة لا تنبزغ إلا في ذلك المكان، أو يهجره ويطمس معالمه؟ وهج الفحم يستحيل رماداً إذا لم يزد جمرة بكمية فحم أخرى والشيخ لا تزال في خزائنه كميات هائلة من الفحم فلماذا يريدون أن يحولوا أشياءه إلى رماد؟ العرش سيعد وإن لم يبادر بلبس التاج والجلوس على الكرسي ستذهب ريحه، وتذره الرياح رماداً أشهب في الجو، فتات نفس قديمة يذكر الذين يمرون عليها أنها كانت بها حياة وهل تنفع الذكرى وهو هناك قابع في كهف العدم.

قبل أن يتسلم الشيخ دكانه كانت لديه مشكلتان: الأولى أن إدارة السوق الجديد كانت قد سجلت اسمه في قائمة باعة الخضار وتعللت بأنه ليس في السوق أماكن مخصصة لبيع الفحم والثانية أن الدكاكين قد تكون صغيرة فتعجز عن استيعاب مستورداته من الفحم، ولكنه علل نفسه بأن باعة الخضار هم أصدقاؤه القدماء وأن زبناءهم نفس زبنائه، ربات البيوت والطباخون، فوجوده بينهم سيكون مناسباً له جداً أما مستورداته فسيتركها إلى أن يعاين الدكان ويعرف سعته وبعد ذلك يتصرف

فيبحث عن مخزن لبقية الفحم أو يكتري له دكاناً قرب السوق يخزنه فيه.

وجاء يوم التسليم فتسلم الشيخ سعد بوه مفتاح الدكان في الركن الغربي من السوق ضمن مربع من الدكاكين المطلة على ساحة بنيت فيها عنابر بدا أنها مخصصة لبيع اللحوم، وجرى الشيخ في إعداد أحوال محله الجديد دون معارضة من أبنائه الذين ظهر أنهم لا يبالون، خصوصاً أحمد، فقد طلبت خديجة من أحمد أن يترك الشيخ وشأنه وصورت له كيف وقع له معها حين عارضت أمر عودته إلى السوق وأن ذلك إن تكرر معه قد يسبب للشيخ ما لا تحمد عاقبته، ولم يكن أحمد شديد المعارضة لأبيه ولذلك لم يبال بما يقوم به أبوه، فلم يسأله عنه ولا الشيخ حدثه عما ينوي فعله، والحق أن أحمد هو الآخر كان مشغولاً تلك الأيام بالإشراف على تسيير العمل في البقالة التي استطاع أن يستجلب لها ابن عمه ورجلاً آخر من أقاربه وكان يتعهدهما بالزيارة ويقضي معهما أوقات فراغه، وأما عبدالله فلم يكن يزورهم إلا أن أحمد وخديجة كانا يذهبان إليه، بخلاف زوجته وأبنائها فقد كانت تحرص على أن تزور الشيخ مرة في الشهر على الأقل وربما علم عبدالله بأمر أبيه من زوجته أو أحد أخويه، ولكنه

لم يكترث لذلك ولم تصدر عنه أية ردة فعل، وأياً كان الذي أخبره من هؤلاء فإنه سيكون طلب منه أن لا يناقش أباه في قراره وأن لا يتعرض عليه وهكذا اكتفى عبدالله بهجر أبيه، فقد سد باب النقاش منذ شهور عندما خرج عبدالله غضبان متذمراً مقسماً أن لن يعود إلى البيت ثانية، ورغم أنه عاد حين عدل الشيخ في تلك المرة عن رأيه إلا أن مسحة من جفاء بقيت بينهما.

عنف السوق

لم يكن الدكان الذي استلمه الشيخ سعد بوه واسعاً يستوعب كل حمولة شاحنة من الفحم إلا أنه كان كافياً لاستيعاب مطالب المشترين أسبوعاً ولذلك قرر الشيخ أن يختزن البقية في حائط في الحي أجره لهذا الغرض، والمهم عند الشيخ سعد بوه هو أن يعود إلى مكانه، ويستعيد علاقاته، ليس مهماً أن يستوعب المكان الكمية أو لا، بل الهدف هو استعادة المركز واسترجاع المحل المشهور الذي يرتاده الباعة من حيه والأحياء المجاورة ويورد لهم ويستعيد كذلك زبناءه في الحي من ربات بيوت وعمال منازل وأطفال والأهم من ذلك كله أن يحتل مكانة بين أصدقاء العمر أولئك الأصحاب الذين عاشرهم زمناً طويلاً وعاش معهم أياماً جميلة كلها جد واجتهاد وفرحة كانت العودة وإعادة الزمرة حلماً جميلاً يسعى إليه ويريد تحقيقه.

سيرجع ينصب مكانه ويجلس على المقعد،

سينسى شقاء البقالة ونكد الجلوس في المنزل، من جديد تتحرك السفينة ليجلس على عربة القيادة ولترتفع الأشرعة، البحر عاد إلى هدوئه الأول والعواصف ساكنة كل شيء يغري بالإبحار.

جلس الشيخ في محله الجديد وقد مرت ثلاثة أيام وهو على تلك الحال يجلس صامتاً لا يتحرك يصم أذنيه لغط الباعة وأصوات الناس ينتقلون ملأ الممرات بين الدكاكين وعنابر اللحم وعندما يقابلون دكانه يحدقون بالداخل، لا شيء سوى الفحم الأسود ويسحبون نظراتهم بعد أن يستولي العجب على نفوسهم، قال أحدهم باستغراب وهو يداري ابتسامة سخرية:

(دكان للفحم في هذا المكان!).

تنتفض نفس الشيخ سعد بوه لذلك ويرد عليه بتحد وغضب:

ـ نعم وماذا في ذلك، أليس بضاعة؟ ألا يستحق أن يكون له دكان؟

وفي كل مرة يكون ذلك الشخص قد جاوز المحل دون أن يسمع كلام الشيخ، الذي يجد نفسه في كل مرة يعتمل الغضب في داخله، لا أحد يزوره، لا أحد يشتري من عنده، أين باعة الفحم الذين وعدوه

بالشراء إن هو استورده لهم؟ أين الزبناء ألا يشترون؟ أف لهم لقد كذبوه ووعدوه بأن سيأتوا ولم يفعلوا.

السوق يتنكر له، هذه الزحمة غريبة هنا وهذا اللغط! عدنا إلى الأصوات المزعجة أين الهدوء الذي منى به نفسه؟ ما هذه السوق التي عرفها من قبل وليست تلك معالمها ولا ذلك سلوك أهلها، أناس كتب التيه عليهم والعجلة على وجوههم يتحركون في المعمعان كالسيل الجارف نفس النظرات العجلى والإطلالة الحائرة ولو سألتهم ماذا يريدون فلن يتثبتوا ليعرفوا ماذا يريدون.

الشريط يدور من جديد والقار يمتد أسود موقعاً لحن الخراب والسراب في أدمغة القوم؛ بتلاشي الهدوء أمام مهرجان الحركة والأصوات المزعجة، عما قليل وفي نهاية الامتداد يلوح العري وأطياف التبدل والاضمحلال.

أين الرفقاء؟ أصدقاء العمر والسوق القديمة، لم يحضروا هم الآخرون وعدوه بالحضور فكذبوا لماذا لم يحضروا، عبدالله صديق عمره جاره في السوق والحي كان في الدكان الذي عن يساره ومنزله إلى الآن ملازم لمنزله، لقد اختار أن يبقى في سوق الأكواخ الذي رحل إليه، فالإيجار مرتفع كما قال وليس له من رأس المال ما يستطيع به أن يؤمن مردوداً كافياً لإيجار ثم للوازم

حياته لذلك قرر أن يؤجر المحل الذي حصل عليه في السوق الجديد بربح قليل وأن يبقى في سوق الأكواخ، وأكثر الأصدقاء فعلوا مثل فعله، حتى الشيخ أحمد ذلك الرجل الوقور الذي كان دكانه عن يمينه فضل هو الآخر البقاء هناك، كانت (لا إلٰه إلاَّ الله) لا تفارق لسانه، يرددها بترنم وخشوع وبصوت أجش يغزو أعماق الشيخ سعد بوه فيحركها وتفيض نفسه إيماناً ويمعن في الاستماع متلذذاً بذلك الترديد الأخاذ، وموسى هو الآخر اختفى، قيل: إنه ذهب إلى السبخة وافتتح هنالك حانوتاً صغيراً كانت نكاته ولطافته تشيع البسمة في المجموعة وتذهب مشقة العمل، خصوصاً عندما تخف حركة المشترين قبيل الزوال وعند الأصيل، كان مهرج الجماعة وكان الشيخ سعد بوه يحبه وقد جعل ذلك الشيخ لا يكاد ينزل إبريقه عن النار ليجذبه إليه وكان محباً للشاي، أما سيد أحمد فقد ترك العمل جاء ابنه إلى السوق الجديد وافتتح محلاً، وانتظر الشيخ أن يأتي سيد أحمد، ولما لم يأت سأل عنه ابنه، فذكر أن أباه ضعف ولم تعد له قوة على العمل.

كثير من الذين عرفهم في السوق القديم صاروا إلى نفس المصائر التي صار إليها هؤلاء، لم يدخل السوق الجديد منهم غير الشباب ولم يلق من الذين

صاحبهم غير الجزار اعويمر، وكان رغم طول صحبتهما لا يحبه لجلافته ووقاحته، ولم يسع أبداً لأن تكون بينهما صداقة حقيقية، طرحه جانباً منذ أول لقاء وكان يفضل عليه جاره السابق ذلك الأشيب الوقور السالك ولكن السالك لم يحضر هنا، ذهب إلى سوق أخرى كما قيل له.

مرت بالشيخ إحدى ربات البيوت كانت تعودت أن تشتري من عنده الفحم وجاءته هذه المرة لمجرد السلام عندما رأته على باب دكانه وكانت تسلك الطريق في الزحمة عائدة إلى أهلها، واشترت من عنده كيلوغراماً من الفحم تذكاراً لعهد قديم كانت فيه زبونة منتظمة للشيخ، واعتذرت عن أنها لن تعود لشرائه من بعد، فقد تحولت عنه إلى الغاز، وعللت عدم إقبال الزبناء على الشيخ عندما شكا إليها هجرتهم له وقلتهم بأنهم قد يكونون تحولوا إلى الغاز، كما فعلت هي أو أن زحمة السوق والطرق المتعرجة داخله تمنعهم من الوصول إليه فيذهبون إلى الباعة الذين انتشروا في الحي وكان الشيخ قد فكر في هذا الأمر من قبل، وهو ما جعله لا يطمئن لهذا الازدحام من أول وهلة، إنه يخنقه يبدل معالمه ويمحو وجوده، يحجب عنه ضوء الشمس، الدكاكين التي ظنها من أول يوم متباعدة والساحة التي

رآها واسعة كبيرة كل ذلك بدأ في الانضغاط والتراص أحس نفسه محشوراً بينها يسحقه ثقل المكان كأنه عجلات شاحنة عملاقة.

ها أنت تجني ثمرات عنادك، لقد خذلوك، تشتتوا وبقيت هنا صريع أوهامك ومكابرتك، اختاروا الكسب على الصحبة وزعموا لك أنهم لا يستطيعون أن يجاروا التجار هنا وأن ليس لهم من رأس المال ما يؤمن لهم مردوداً كافياً لدفع إيجار الدكاكين وسد حاجات المعيشة، ستقول إن ذلك زعم باطل وأنهم لو جاءوا هنا لكنتم جميعاً يداً واحدة ولاستعدتم زبناءكم هيهات أن تستعيدهم أو أن تعودوا إلى زمنكم الأول، حياتكم الأولى، أما ترى المعمعان والوجوه الكالحة الحيرى؟ عسى أن تكون هذه المرة قد أفقت من أحلامك بعد أن لم توقظك معارضة أبنائك ولا قرار مدير هيئة السوق، أما آن لك أن ترتاح؟ لن يكون بإمكانك فعل شيء بعد الآن، لقد استنفذت كل أسباب البقاء فارحل الآن وإلا جرفك السيل.

كانت هيئة إدارة السوق قد أرادت أن تمنع الشيخ سعد بوه من بيع الفحم في الدكان عندما اطلعت عليه، ولكنه كان موفقاً حين علم بأن مدير الهيئة قريب لصهره مولاي، فسعى مولاي عند المدير فسمح للشيخ ببيع

الفحم على أن لا يصل شيء من فتاته وغباره إلى خارج الدكان وأن يلتزم بتنظيف واجهة الدكان وقد عرض المدير على الشيخ أن يبدله الدكان بمخزن يطل على خارج السوق ولكن الشيخ فضل أن يبقى في الدكان في ذلك الوقت ظناً منه أن الآخرين سيأتون وأنه سيستأنف المشوار، ولكنهم لم يأتوا.

وبدا أن تجارته هنا كاسدة فقد انتظر ثلاثة أيام وأربعة وخمسة وعشرة وأحد عشر دون جدوى، السوق تتحرك كالموج تحت عينيه، لا شيء هنا ساكن أو ثابت غيره ولن يستطيع أن يظل على تلك الحال، إن عليه أن ينسحب، وأن يخلي المكان لا مقام له هنا، كان يمكنه أن يتقبل الخسارة لو أنه استعاد أصدقاءه، لو أن الزمرة التأمت لأمكنه الانتظار، عودة الأصدقاء لا بد أن تجلب الزبناء وتعيدهم، أما وقد تفرق الأصدقاء وتشتتوا وخلت منهم السوق واستبدلوا بهذه الوجوه الكالحة والأصوات المزعجة والحركة الضالة فإن الزبناء غير منتظرين، إن استعادة المجد الآفل غير ممكنة وإن عليه هو الآخر أن يرحل.

انعكاس الصورة

ـ العاشرة والنصف:

قالها الشيخ وهو يسوي ساعة (السيكو ٥) على ظهر ساعده، ساعة أمينة لا تشذ عن الوقت الصحيح قيد أنملة، لقد رافقته قرابة عشر سنين يضبط عليها ذهابه إلى السوق وعودته منه في أوقات محددة، ويستعين بها على أوقات الصلاة، فكر أن حاجته إليها لن تكون كبيرة بعد اليوم، سيكون الوقت جميعه بيده يصرفه كيف يشاء، لن يكون هناك أمر يتقدم عنه أو يتأخر، لن يخسر شيئاً لو أن هذه الساعة توقفت بعد اليوم، ما زالت تصارع ولكنه اكتشف لأول مرة أن طبقاتها العليا تآكلت وعقاربها اعوجت وصدت من الداخل لا بد أنها الآن تلفظ آخر أنفاسها.

نضجت فكرة في ذهن الشيخ فعمد إلى كوب ماء وجلس على الباب وذر شيئاً من مسحوق الصابون على

يديه وغسل أطرافه وتوضأ ثم قام يخلع (فوقية) العمل وأخرج دراعته وكان يدسها في كيس نايلون لتسلم من غبار الفحم ثم صلى الضحى وكان يواظب عليها، فلما فرغ قام يردد:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

والتقط المفاتيح ثم عمد إلى باب الدكان فأغلقه.

- العاشرة والنصف، عز حركة السوق، وعنفوان عمليات البيع والشراء، ليس هذا وقت يغلق فيه تاجر باب محله، ولكن ماذا يستفيد هو لو بقي على حاله؟ رحم الله أياماً مضت، كان في مثل هذا الوقت مأخوذاً بزحمة الزبناء فوقه، لا يجد لحظة يلتقط فيها أنفاسه حتى إن الضحى تضيع منه في غمرة انشغاله.

- لم يحدث من قبل أن فكر في ترك السوق في مثل تلك اللحظات وهو وإن فكر اليوم في ذلك فإنما كان يصدر عن عقليه تاجر يقدر حساب الربح والخسارة ولا يطيق الجلوس على بضاعة كاسدة ولذلك قرر أن يترك السوق في تلك الساعة، وسار في الزحمة يتحسس طريقه إلى خارج السوق خرج من الزحمة التي خنقته وفي الخارج طرأت له فكرة أن يمر بالمخازن التي ذكر

مدير إدارة السوق، فليلق نظرة عليها قد يكون الخارج خيراً من الداخل، إنها تطل على الحي مباشرة لن يحول بينه وبين الزبناء حائل، هنا سيجدد العهد ويصل المقطوع من الحياة القديمة، كانت هنالك ثلاثة مخازن مستطيلة تطل بعرضها على الطريق، أبوابها من مصراعين يفتح كل مصراع على طول جدار المخزن، الأوسط من هذه المخازن اتخذ حانوتاً، دلف الشيخ داخله واشترى منه لبناً وسكراً وأعطاه البائع قدحاً وماء، فصنع لنفسه زريقاً وبدأ يحتسي شرابه وهو جالس على فراش أرضي يرسل نظراته إلى الخارج يفحص الواجهات المقابلة للسوق، على الجانب الآخر للطريق، أبنية تجدد وواجهات تطلى بألوان فاتحة براقة، أبواب زجاجية لماعة عمارات ترتفع، الطريق يخلع ثوبه القديم تولد فيه حركة تتصاعد في أعلى تطاول عنان السماء، أبواق ترتفع على غرر الدكاكين الأصوات المزعجة تنبعث تدك حصون الصمت وتمزقه، الحركة تشتت بعيداً أشلاء الهدوء، يد خفية تعبث بهذا المكان الذي أحبه واستلذ هدوءه، الأبنية الجميلة بتواضعها الذي لا يخلو من كبرياء، الدور القصيرة قصراً حنوناً يستميل الإنسان، يحفظ له كبرياءه وشموخه ذلك الشموخ والكبرياء اللذين ستسحقهما العمارات الجديدة وتقضي عليهما.

فرغ الشيخ من قدحه وشكر الحانوتي واعتمد على جدار الحانوت ليقف ثم خطا خطواً ثقيلاً خارجاً، كان يبدو مرهقاً كأنما يرسف في أغلال الحديد، يسحب من أعماقه نفساً عميقاً منذ سنين عديدة لم يجد مثل هذا التعب، أقدامه ميتة خالية من الإحساس لا تكاد تحمله، ما هذا التعب المفاجىء الذي أصابه؟ لم يكن بذل مجهوداً كبيراً في الأيام الماضية، كان يقطع الطريق مثبتاً نظراته على الأبواب الزجاجية للمحل المقابل له، أمعن النظر فأنكر الصورة التي عكستها المرايا، مشي حتى وقف أمامها شيخ مسن مترهل الجسم بشرة سمراء حرقتها شمس السنين الوهاجة عارضين نبت الشيب فيهما ووجه نثرت فوقه السنين توقيعاتها خطوطاً متعرجة كثيرة وقامة فارعة تجنح للتقوس، انتبه أن الوقفة غير لائقة فقد يظن به جنون أو خرف يتأمل صورته في مرايا زجاجية على قارعة الطريق، ليست تلك صورته، هذا الشيخ المنيف على السبعين ليس هو، ألقى نظراته على ساعديه تحسس جلده، عروقٌ كثيرة وبشرة مترهلة، جس بإصبعه جلد ساعده الأيسر وأمسك منه بين إصبعيه وجذب برفق لقد جف جسمه ما هذه الشيخوخة المفاجئة! بالأمس كان يجد في نفسه حيوية، عمل في البقالة بقوة ونشاط رغم كراهيته لها، وقبلها في السوق، كان يفيض حيوية وحين غضب على الفتى ضربه بقوة

شاب جلد، انقلاب مفاجىء في حياته، لقد سمع من المجربين أن الشيخوخة لا تأتي إلا فجأة وليست لها نذر، قضي الأمر إذن والحياة تريد أن تلفظه كما لفظت العمارات بيوت الحي أو كما لفظ السوق الجديد أكواخ السوق القديم، ولفظ صوت الأبواق صمت الحي، ليس لك إلا أن تسلم وتستسلم فلا فائدة في الإصرار والعناد، أرح نفسك قبل السفر وإن أبناءك لن يلوموك على هذه الرجعة. لكن الهزيمة ستؤكد لعبدالله خرفك وسيصدق ظن أبناؤك جميعاً، وأنت لا تحب أن يشمت فيك الآخرون ولقد عشت عمرك منتصراً فكيف تقبل الهزيمة اليوم، لقد خذلك أصدقاؤك وحتى السوق الذي أحببته تخلى عنك والحي أيضاً، خديجة لم تبتهج بعودتك إلى السوق، لو لقيت مريم فقل لها إنك خلعت الثياب الجديدة وقطعت الصلة مع الهوس والجنون ولكنه تبعك إلى مرابعك وداهمك في عقر دارك وما هو إلا قليل ويزيحك عن هذا الكون.. قل لها أن تعد لك الفراش فموعد الضجعة قريب.

وصل الشيخ إلى المنزل يجر أقدامه مثقلاً مترنحاً تعلو وجهه كآبة الإحباط، كان التعب قد نال منه، ضرب قلبه بعنف وهو يمد يده ليتناول المفاتيح من صاحب الحانوت المجاور للمنزل، وكانوا يتركونها عنده

حتى إذا جاء أحدهم يأخذها، ثبت الشيخ نظراته على يده المعرقة وهو يتناول المفاتيح أصابته رعشة الخوف حين قفزت إلى ذهنه فكرة الارتعاش، فهو إذا وصل إلى هذه المرحلة من الضعف فالموت أحب إليه، كانت الخاطرة مزعجة مؤلمة وقد فطن صاحب الحانوت إلى ذلك الانزعاج والحزن البادين على وجه الشيخ ولم يكن قد عهد منه هذه العودة المبكرة فسأله:

- عسى أن تكون بخير؟

- أنا بخير؟ إنما هو بعض الإرهاق.

تناول المفاتيح وانصرف، وفي المنزل ارتمى على حشية داخل حجرته بعد أن أوصد الباب كان متلهفاً للنوم يريد أن يرتاح أن يغيب عن هذا العالم سنوات طويلة مرت وهو لا ينام، يريد أن ينسى متاعبه وهذا العالم المزعج وليكن ما يكون، ليغرق نفسه في سبات عميق لقد تداعت الأشرعة والرياح العاصفة هبت بلا هوادة ليس للربان إلا أن يرمي بنفسه في البر، في الحلم رأى سفناً تتقلب وعمارات تهوى وحصوناً تدك والسيل الهادر يجرفه سيل من القار أو الفحم لم يكد يتبينه حتى طغى عليه وجرفه.